حبك النص
منظورات من التراث العربي

محمد العبد

١- توطئة

يميز هارتمان Hartmann- في نشأة علم لغة النص- بين سبع مراحل من التطور وضعت معالمه، هي: علم البلاغة، وعلم الأسلوب، والتأويل، والسيميائية، وتحليل المضمون، ونظرية أفعال الكلام، والبلاغة الجديدة. أما علم البلاغة- من بينها- فقد تجلت أهميته في تعامله مع اللغة من حيث هي خطاب فعلي، وفي تشكيله أنماط الاتصال المؤثر ومعاييره(١).

في علم البلاغة العربي، تقع مناطق شاسعة للعناية بطرق الإبلاغ المؤثر، فضلا عن العناية بمعايير البنية المثلى للنص وصناعته. ولكن تظل بين العلمين وجوه للمفارقة. بينما كان علم البلاغة الغربي أول العلوم التي أسهمت في تأسيس هذا العلم اللغوي النصي، لم يطور علم البلاغة العربي علما جديدا.

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن تبصرات القدماء ومنظوراتهم إلى خاصية الحبك Coherence. وتسعى من وراء ذلك إلى استصفاء المبادئ والتصورات التي يمكن لها أن تتخذ مرتكزات لتحليل النص العربي تحليلا مناسبا، لا يغفل عن خواصه ومعاييره البنائية والاتصالية، من حيث إن النص - في المقام الأول - إنتاج بيئته الاجتماعية والحضارية، وهو - في الوقت نفسه - يدل عليها ويمارس فيها وظائفه.

وأحسب أن علم لغة النص وتحليل الخطاب هما أفضل نقطة يلتقي عندها علم البلاغة وعلم اللغة أحدهما بالآخر. من ثم، تأمل هذه الدراسة أن تكون خطوة على طريق توثيق الصلات بين علم البلاغة وعلم اللغة توثيقا يفيد منه كلا العلمين ؛ وذلك بأن يدفع علم البلاغة علم اللغة إلى تجاوز حدوده التقليدية التي تقنع بوصف الأنماط البنائية المفردة الصغرى للغة وتحليلها إلى علم الاتصال والتداولية ونحوهما، وبأن يدفع علم اللغة علم البلاغة إلى تجاوز إطاره التقليدي نظاما من القواعد والمعايير عما يجب في الكلام وما لا يجب، إلى معالجة إشكاليات نصية مهمة من منظور لغوي، مثل تخطيط النص واستراتيجيات الإنتاج، واستراتيجيات تشكيل النصوص الكبرى، واختلاف بنى النصوص باختلاف فئاتها، ومعرفة كيفيات تدرج المضمون النصي، ومعرفة بنى النص الكلية وغيرها. ولهذه المحاولة في البلاغة العربية - الآن - نظائر في البلاغة الأوربية. أضرب مثالا على ذلك محاولة رولان بارت ROLAND BARTHES في كتابه: "قراءة جديدة للبلاغة القديمة" الذي بناه على أساس مصطلحات بنيوية وسيميائية(٢).

وتتخذ هذه الدراسة من فحص مفهوم الحبك ومرادفاته في تبصرات التراث العربي وسيلة لبلورة المفاهيم والمنظورات اللغوية والبلاغية وتوثيق الصلات بينها في تحليل الخطاب، بعد أن ثبت أن قضايا البلاغة بفروعها المختلفة قضايا لغوية الطابع في مجملها، وأنها - كما يقول تمام حسان - لاتقرب من الطابع النقدي إلا في مواضع محددة(٣).

في هذه التوطئة، ينبغي لنا - قبل الكشف عن تبصرات القدماء ومنظوراتهم في الحبك وتحليلها - أن نعرف: ما الحبك ؟ وما موقعه بين معايير النصية ؟ وما أهم المفاهيم الأخرى التي ترتبط به عند تحليل بنيته ؟.

كان من أهم ما تمخضت عنه النظرية اللغوية المعاصرة علم لغة النص. وكان من إسهامات علم لغة النص المهمة تحليل ما عرف بمعايير النصية Norms of Textuality. ومعايير النصية هي المكونات التي تجعل النص كلا موحدا متماسكا دالا، لا محض سلسلة من الكلمات والجمل غير المترابطة. هذه المكونات هي: السبك Cohesion والحبك Coherence والقصد Intentionality

والقبول Acceptability، ورعاية الموقف Situationality، والتناص Intertextuality والإعلامية Informativity.

تتكامل المكونات السبعة السابقة فى تحقيق الطبيعة النصية للنص . كانت هذه المكونات الفكرة المركزية فى عمل رائد فى مجال علم لغة النص ؛ وهو عمل دوبوجراند De Beaugrande ودرسلر Dressler المسمى: (مدخل إلى علم لغة النص An Introduction to text linguistics).

فى علم اللغة المعاصر جعل الشرط الجوهرى للنص أن يكون كلا موحداً منتظماً فى وحدة دلالية، لاتجميعاً محضاً بين جُمل يعوزها الترابط الدلالى، سواء فى ذلك أن يكون نصا منطوقا أم مكتوبا، قصيرا أم طويلا . من أجل ذلك نظر إلى النص بوصفه تصميماً للمعانى على مستوى أعلى[٤]. وفى ضوء ذلك أيضاً عرف النص عند هاليداى ورقية حسن بأنه وحدة من التنظيم الدلالى الموقفى؛ أى أنه استمرارية معنوية أو انتظام للمعانى فى السياق، تشيّده علاقة الحبك الدلالية[٥].

يُكوّن السبك والحبك - من بين المعايير السبعة بوجه خاص - ثنائية مفهومية فى حقل علم لغة النص وتحليل الخطاب . يربط السبك بين عناصر سطح النص، ويكمن الحبك بين عالمه النصى ؛ أى أنهما يشيران إلى كيفية تكيف العناصر التى تكون النص بعضها مع بعض وصنع المعنى . السبك والحبك - كما يقرر دوبوجراند ودرسلر - أوضح معايير النصية، وإن كانا لايمكن لهما أن يقدما فواصل مطلقة بين النصوص وغير النصوص فى الاتصال الفعلى[٦].

يجعل علماء لغة النص للحبك أهمية خاصة . الحبك عند كلاوس برنكر Klaus Brinker هو المفهوم النواة فى تعريف النص، وهو يقع عنده فى مركز علم لغة النص الموجه إلى النظام اللغوى[٧].

ويرى كل من هاينمن Heinemann وفيفيجر Viehweger أن وحدة النص Texteinheitlichkeit لاتقاس بظواهر سطحية ؛ ولكنها تقاس بالبحث عنها فى البنية الدلالية الأساسية semantische basisstruktur التى تكشف عنها المسائل الدلالية الكبرى للأبنية المركبة والحبك النصى[٨].

يرجع المفهوم Coherence فى الإنجليزية أو Kohaerenz فى الألمانية إلى الأصل اللاتينى Cohaerentia. وهو مستعار من علم الكيمياء . عرف هذا المفهوم فى علم اللغة النصى وتحليل الخطاب حدودا عدة . يحدّه سوفنسكى Sowinski بقوله: " يقضى للجمل والمنطوقات بأنها محبوكة، إذا اتصلت بعض المعلومات فيها ببعض، فى إطار نصى أو موقف اتصالى، اتصالا لايشعر معه المستمعون أو القراء بثغرات أو انقطاعات فى المعلومات[٩]. ويحده ليفاندوفسكى Lewandowski بقوله: " ليس الحبك محض خاصة من خواص النص، ولكنه أيضاً حصيلة اعتبارات معرفية (بنائية) عند المستمعين أو القراء. الحبك حصيلة تفعيل دلالى Bedeutungsaktualisierung، ينهض على ترابط معنوى بين التصورات والمعارف، من حيث هى مركب من المفاهيم وما بينها من علاقات، على معنى أنها شبكة دلالية مختزنة، لا يتناولها النص غالبا على مستوى الشكل ؛ فالمستمع أو القارئ هو الذى يصمم الحبك الضرورى أو ينشئه"[١٠].

ويلخص ليفاندوفسكى زوايا النظر إلى الحبك فى علم اللغة النصى فيما يلى:

١- الحبك من حيث هو الشرط اللغوى لفهم السبك فهما أعمق .

٢- الحبك من حيث هو إحدى خصائص الارتباط بين الأشياء والأوضاع وبين مراجعها، وهو ما يسمى بالارتباط المرجعى أو الإشارى Referentiel.

٣- الحبك من حيث هو إحدى خصائص الإطار الاتصالى الاجتماعى .

٤- الحبك من حيث هو إجراء ومن حيث هو حصيلة التلقى الابتكارى البناء[١١].

تدل الحدود السابقة مع غيرها على أن الحبك فى جوهره تنظيم مضمون النص تنظيماً دلاليا منطقيا . تسلسل المعانى والمفاهيم والقضايا على نحو منطقى مترابط هو أس حبك النص. والنص الذى يوصف بأنه لا معنى له، هو النص الذى لا يستطيع مستقبلوه أن يعثروا فيه على مثل هذا التسلسل .

إذا كـانت وسـائل السبك هـى الإحالة Reference، والاستبدال Substitution، والحذف Ellipsis، والوصـل Conjunction، والسبك المعجمى Lexical Cohesion، فإن وسائل الحبك ـ فيما ذكره دوبوجراند ـ تشتمل على:

١ـ العناصر المنطقية ؛ كالسببية، والعموم، والخصوص class inclusion .

٢ـ معلومات عن تنظيم الأحداث، والأعمال، والموضوعات، والمواقف.

٣ـ السعى إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الانسانية . ويدعم الحبك (عند المترجم الالتحام) بتفاعل المعلومات التى يعرضها النص مع المعرفة السابقة بالعالم[١٢].

تحيط بالحبك فى نظرية النص شبكة من المفاهيم النظرية التى تمكن من تحليل بنيته تحليلا متكاملا . من أهم هذه المفاهيم :

١ـ مفهوم "الحبك الطولى أو المتدرج Linear or Sequential Coherence" فى مقابل مفهوم " الحبك الشامل أو الكلى Global or Overall Coherence" . ينتج الحبك الطولى بين ما تعبر عنه الجمل ومتواليات الجمل من قضايا . هذا النوع من القضايا Propositions هو الذى ينتج عنه ما يسمى ببنى النص الصغرى . أما البنى الدلالية الأشمل والتى لاتشخص تشخيصا مباشراً عن طريق العلاقات بين قضايا مفردة، بل تشخص فى حدود ما نجريه على تلك المجموعات والمتواليات من إجراءات، فهى البنى التى تنتج هذا النوع من القضايا والمتواليات الكلية التى تكون ما يسمى ببنى النص الكبرى[١٣].

٢ـ مفهوم "علاقات الحبك Coherence Relations"، ونذكر لها الأنواع التالية:

(أ) وحدة المرجع Referential Identity، وهو يمثل إحدى علاقات الحبك بين الذوات . وخلاصته أن الموضوعات وحدات فى قضايا مختلفة، يمكن أن يكون لها الذات نفسها، والقيمة ذاتها . ويمكن أن يشار إلى الذات الواحدة باسم العلم، أو الضمير، أو بمفردات مثل " آخر "، أو تعبيرات مثل " ذلك الولد " أو " الطالب الذى فقد كتابه "[١٤].

(ب) علاقة الاختلاف والتغير Relation of difference and change: وفحواها أننا لا ندوم فى الخطاب على ذكر الشئ نفسه عن الذوات أنفسها، بل ندخل إلى عالم الخطاب ذواتا جديدة، أو نعين جديدا من الخصائص والعلاقات لذوات أدخلناها من قبل .

كذلك، فإن التغير فى العالم النصي أو فى الموقف، تحدده بعض العلاقات المقبولة بهذا العالم أو الموقف الذى أنشأناه من قبل. المهم أنه ينبغى للتغيرات أن تكون متجانسة Homogeneous، وأن يكون وقوعها فى حدود مستوى أعلى من مستويات مبدأ يحدد الذوات الممكنة والخصائص الممكنة لعالم نصى بعينه .

يرتبط تغير الذوات والخصائص بما ذكر من قبل من نظائرها . ويوجب تسلسل الخطاب أو استمراريته، أن تعبر كل جملة ـ من حيث المبدأ ـ عن هذه العلاقة بين مذكور وجديد من المعلومات، أو بين ما يسمى بالمحور Topic والتفسير Comment على النحو التالى:

< < أ، ب >، < ب، جـ >، < جـ، د >، > أو < < أ، ب >، < أ، جـ >، < أ، د >، >[١٥].

(جـ) علاقة التبعية Subordination: وذلك أن الأقوال تحبك أيضاً حبكاً منطقياً عن طريق التبعية (العلة Cause، الشرط Condition، المقارنة Comparison، التخصيص Specification الخ)، أو عن طريق تدرج الأجزاء وعلاقة الجزء بالكل[١٦].

٣ـ مفهوم " الحلقات المفقودة Missing Links": ويقصد بها عند " فان دايك van Dijk " القضايا التى نسلم بها على أنها تنشئ الحبك النظرى للنص والتى لا يعبر عنها فى الخطاب . ويمكن أن يعاد تركيب هذه الحلقات المفقودة بواسطة ما يسمى بقوانين الاستدلال Rules of Inference، أو القوانين والإجراءات التى تحدد على مستوى التداولية، أو أن تحدد بواسطة النظرية المعرفية[١٧].

ويرتبط مفهوم " الحلقات المفقودة " عند فان دايك بمفهومين آخرين عند " ودوسون Widdowson " ؛ أحدهما " أعراف الحبك Conventions of Coherence " والآخر ما يسميه بالرابطة الإنجازية Illocutionary Link " . خلاصة المفهوم الأول أننا نربط ما يقال بما نعرف، وأن قدرا من المقدرة على الاستدلال يؤول إلى تقاليد وأعراف مرتبطة بنوع الخطاب . نحن نتعلم - مثلا - أن المكاتبات الإدارية ذات صيغة بعينها، وأن المعمليين يكتبون تقاريرهم على نحو بعينه، وهكذا ؛ يكون الخطاب محبوكا على قدر إدراكنا إياه من حيث هو تمثيل لاستعمال لغوى عادى، وهو محبوك على قدر قبولنا الأحداث الإنجازية بوصفها خاضعة للأعراف السائدة فى هذا النوع أو ذاك من أنواع الخطاب . يخلص " ود وسون " إلى القول " بأن الحبك يقاس بمدى خضوع حالة بعينها من حالات الاستعمال اللغوى للمعرفة المشتركة بالأعراف وبكيفية ارتباط الأحداث الإنجازية لتكوين وحدات أكبر من الخطاب، من أنواع مختلفة . إذا قابلتنا قطعة من اللغة، أمكننا الحكم بكيفية حبكها وصفا، أو تقريرا تقنيا، أو مذكرة قانونية الخ "[18].

أما المفهوم الثانى، فهو ما يسميه ودوسون باسم " الرابطة الإنجازية " Illocutionary link . فى بيان هذا المفهوم يضرب مثلا بالمبادلة الكلامية التالية:

أ : ماذا فعل رجال الشرطة ؟

ب : جئت لتوى !

نجعل لما سبق معنى بتركيز انتباهنا على الأفعال الإنجازية التى استخدمت القضايا الإنجازية. نحن نصنع موقفا فى عقولنا، يزودنا برابطة إنجازية بين المنطوقين . وينبغى لنا أن نتخيل موقفا يشهد - على سبيل المثال - نوع شغب أحاط برجال الشرطة، وشد انتباه المارة . إنه جمع متزاحم، يسأل فيه المشاهد (أ) المشاهد الآخر (ب) عما حدث . يفسَّر منطوق (ب) الآن على أنه كشف عن عجزه عن الإجابة عن سؤال (أ) . إنه لا يقدر على أن يمدنا بالمعلومة المطلوبة ؛ لأنه حضر لتوه . يمكننا - إذ ذاك - أن نأتى بالرابطة القضوية المفقودة على النحو التالى :

أ : ماذا فعل رجال الشرطة ؟

ب: (لا أعرف ما فعله رجال الشرطة لأننى) جئت لتوى ![19]

يريد ودوسون أن يصل من هذا إلى الأمرين التاليين:

١- يوجد السبك حيثما توجد علاقة قضوية Propositional Relationship بين الجمل . السبك إذن علاقة صريحة بين قضايا تعبر عنها الجمل .

٢- يوجد الحبك حيثما توجد علاقة بين الأفعال الإنجازية التى تنجزها القضايا (والتى لا يرتبط بعضها ببعض دائما ارتباطاً صريحاً) .

فى ضوء ما سبق، نرى تلك المبادلة مبادلة محبوكة غير مسبوكة . أما المبادلتان التاليتان - فى مقابل ذلك - فهما مسبوكتان محبوكتان:

١ / أ : ماذا فعل رجال الشرطة ؟

ب: ألقوا القبض على المتظاهرين .

٢ / أ : ماذا فعل رجال الشرطة ؟

ب: ألقى الظالمون القبض على المتظاهرين !

ولكن المبادلة رقم ١ أقوى تماسكا من رقم ٢ ؛ وذلك لتطابق المرجع بين أ و ب، فى الوقت الذى قوبل فيه " رجال الشرطة " فى رقم ٢ بـ " الظالمون " فى الإجابة . " الظالمون " فى الإجابة إحالة إلى متقدم، مما يسمح بتأسيس رابطة دلالية بين " رجال الشرطة " و"الظالمون".

على أى حال، نرى فى المبادلتين الأخيرتين علامات شكلية تساعد على اكتشاف الرابطة القضوية بين أ، ب فى كل منهما . بينما الصلات واقعة عبر الجمل فى المبادلتين الأخيرتين، لا نرى صلة بين أ و ب فى المبادلة الأولى .

بناء على ما سبق، يمكن القول بأننا نستطيع الاستدلال على الأفعال الإنجازية من الروابط القضوية التى أشير إليها إشارة صريحة . وفى حال الحبك نستطيع الاستدلال على الروابط القضوية الضمنية من خلال تفسير الأفعال الإنجازية[٢٠].

تدور المفاهيم الثلاثة الأخيرة " الحلقات المفقودة " و " أعراف الحبك " و" الرابطة الإنجازية " حول أثر الاعتبارات التداولية فى وسم الخطاب بالحبك وإن غاب عنه السبك . تبدو الاعتبارات التداولية فى " الاستدلال " على نحو مارأينا، وتبدو أيضا فى العلاقة بين المنطوق ووظيفته فى سياق بعينه، كأن يخرج المنطوق "هناك شخص بالباب " عن وظيفة الإخبار إلى التحذير أو طلب فتح الباب، فى مبادلة مثل:

أ : هناك شخص بالباب .

ب: أنا مشغول !

أ : طيب !

تكون المنطوقات الثلاثة خطاباً محبوكاً، إذا نظرنا إليها من حيث هى أفعال إنجازية . يساعد هذا الفهم للعلاقات بين المنطوقات على تزويد المبادلة السابقة بالروابط القضوية المفقودة والتى تعيد إليها خاصية السبك:

أ : هناك شخص بالباب (هل يمكن أن تفتحه ؟) .

ب: (لا، لا يمكننى أن أفتحة، ف) أنا مشغول !

أ : طيب (سأفتحه أنا) .

قدم علماء اللغة الاجتماعيون- فى عنايتهم بمظهر التفاعل الاجتماعى من استعمال اللغة- وصفا مفيدا فى هذا المجال للكيفية التى تترابط بها المنطقوقات . برهن لابوف Labov على أن هناك مايسمى بـ"قوانين التفسير" التى تربط ما يقال بما يفعل . على أساس هذه القوانين الاجتماعية- لا اللغوية- نفسر بعض السلاسل الحوارية بأنها محبوكة . معرفة الحبك أو عدم الحبك فى السلاسل الحوارية لايعتمد - عند لابوف - على العلاقة بين المنطوقات،ولكنه يعتمد على العلاقة بين الأفعال Actions التى تؤديها تلك المنطوقات[٢١].

نخلص من المفاهيم الثلاثة الأخيرة إلى المسائل المهمة التالية :

١-الحلقات المفقودة قضايا لم يصرح بها الخطاب، ولكننا نسلم بها لدورها فى توفير الحبك للخطاب . ونحن نصل إلى تلك الحلقات عن طريق الاستدلال أو معرفتنا بالعالم .

٢- يخضع معيار الحبك للمعرفة المشتركة بكيفية ارتباط الأفعال الإنجازية بعضها ببعض وبالأعراف السائدة فى جنس بعينه من أجناس الخطاب ؛ كأن يكون تقريرا أو مذكرة أو مكاتبة إدراية الخ .

٣- ينبغى للخطاب أن يكون مسبوكا محبوكا .ولكنه قد يكون محبوكا غير مسبوك . إذا وجدت علاقة قضوية بين الجمل كان الخطاب مسبوكا، وإذا وجدت علاقة بين الأفعال الإنجازية كان محبوكا .

٤- الحبك عند أصحاب نظرية أفعال الكلام وعلماء اللغة الاجتماعيين علاقة بين الأفعال وليس علاقة بين المنطوقات . وهذا ما يستنبط حقا من المبادلات الكلامية الطبيعية .

٢- الحبك عند القدماء: إشارات عامة

دل القدماء على" النص " بأشكاله التى يتبدى فيها تحققه ؛ كالقصيدة والخطبة والرسالة ونحوها، ولم يألفوا - فى تنظيراتهم - جمع تلك التحققات فى مفهوم " النص " البنائى . بيد أن القدماء من اللسانيين البلاغيين قد أتيح لهم - على رغم ذلك - أن يلاحظوا لتلك التحققات مقومات "نصية" جوهرية مشتركة، فضلا عما لاحظوه لكل منها من مقومات نصية بنائية جوهرية خاصة ؛ مثل تلك التى تفرق بين قصيدة ورسالة، أو بين رسالة وخطبة ... الخ .

كان الحبك من أهم تلك المقومات النصية المشتركة التى وقف عليها اللسانيون البلاغيون منذ القرن الثالث الهجرى .فضلا عن مفهوم الحبك نرى فى مصادر التراث البلاغى مفاهيم أخرى ارتبطت بسياقاتها اللغوية فى الدلالة على مايدل عليه الحبك أو على شئ مما يدل عليه ؛ كالاتصال، والامتزاج، والالتئام، والالتحام، والتلاحم، والاتساق، والائتلاف، والاقتران، والارتباط، والملاءمة، والمناسبة، والتناسب وغيرها . لعل الالتحام أقرب هذه المفاهيم إلى معنى الحبك المعجمى ؛ فالحبك شد وإحكام . ولعل الالتحام والتناسب والاتساق أدناها إلى مجال اختصاص الحبك المعنوى وأنآها عن الالتباس والانشغال بالدلالة على خواص أخرى لفظية .

ومهما يكن من أمر، فقد آثرت الحبك على غيره مما دار مداره فى التراث، كما آثرته مقابلا عربيا مناسبا لـ Coherence فى الانجليزية أو Kohaerenz فى الألمانية وما ماثلهما فى لغات أجنبية أخرى، بدلا من هذا الحشد الحاشد المتخالف من المقابلات العربية التى تكاد تختلف باختلاف الباحثين فى ترجمة هذين الاصطلاحين . وأجمل فيما يلى– مرة أخرى– الأسباب التى دعتنا إلى إيثار الحبك على غيره، سواء من نظائره فى التراث العربى نفسه، أو إيثاره على غيره من المقابلات العربية التى قوبل بها المصطلح الأجنبى فى الدراسات العربية والمترجمات الحديثة– أجمل تلك الأسباب فيما يلى :

١- أن الحبك يصنع مع السبك ثنائية مفهومية متجانسة، مما يرسخ مدلوله الاصطلاحى ترسيخا أقوى مقارنة بنظائره .

٢- أن الجمع بينه وبين قرينه السبك، سوف يساعد فى اختصاص معناه بمجرد إطلاقه، وهوما لا يتوفر لمفاهيم أخرى كالملاءمة والائتلاف ونحوهما . الملاءمة مثلا تأتى فى سياق تدل فيه على معنى الحبك، ولكنها تأتى فى سياق آخر تدل فيه على الملاءمة بين اللفظ والمعنى ؛ كأن يكون اللفظ رقيقا مثلا فى موضع الوعد والبشارة .

٣- نظرا لمعنى الحبك فى اللغة، فإنه يبدو أدل من غيره على ما يكون من صانع النص، من توزيع علاقات الحبك وربطها بين وحدات النص الجزئية، من أجل تشييد وحدته النصية الكلية .

أما أهم الإشارات العامة التى تثبت – فى مجملها – وعى القدماء بخاصية الحبك اللغوى للكلام أو النص، فيمكن لنا أن نعرضها موجزين على النحو التالى:

(أ) روى أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) عن عمر بن لجأ أنه قال لأحد الشعراء: " أنا أشعر منك ! قال: وبم ذاك ؟ قال: لأنى أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه "[٢٢].

الأخوة والعمومة فى كلام ابن لجأ إشارة إلى درجة قوة الترابط الدلالى بين سلاسل المنطوقات المتواليات، مما يصير به النص كلا موحدا دالا .وهذه الإشارة الوجيزة فى كلام ابن لجأ تعكس وعى منتجى النصوص أنفسهم بأن إنتاج النص قدرة على القصد، يظهرها المتكلم تجاه الملابسات والظروف التى ينتج فيها نصا، والتى يحاول فيها أن يجعل هذا النص مفهوما، من خلال التخطيط وتسلسل المعلومات على نحو منطقى .

(ب) وقد ذم ابن قتيبة (ت ٢٦٧ هـ) التكلف فى الشعر .وجعل من التكلف فى الشعر عنده أن ترى البيت مقرونا بغير جاره، ومضموما إلى غير لفقه[٢٣].

تخصيص الكلام عن الشعر هنا راجع إلى الجنس الذى يقوم عليه عمل ابن قتيبة فحسب . وما ذكره هنا عن الشعر يسرى على شتى أجناس القول بالطبع ؛ إذ لا تتصور مجاورة حقيقية بين المنطوقات من غير أن تتحقق بينها علاقة دلالية ما.

(ج) وقال ابن طباطبا (ت ٣٢٢ هـ): " وينبغى للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه، فيلائم بينها لتنتظم له معانيها ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه وبين تمامه فضلا من حشو ليس من جنس ماهو فيه ،---،

ويتفقد كل مصراع: هل يشاكل ما قبله ؛ فربما اتفق للشاعر بيتان يضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر، فلا يتنبه على ذلك إلا من دق نظره ولطف فهمه "[٢٤].

انتظام المعاني واتصال الكلام في إشارة ابن طباطبا السابقة أمور ينبغي لها أن تفهم في ضوء مبدأ الاستمرارية المعنوية التي توفر للخطاب حبكا طوليا هو نواة أبنيته الصغرى، كما توفر له حبكا كليا هو نواة بنيته الكبرى . اتصال الكلام وانتظام المعاني يؤديان بالضرورة إلى المشاكلة بين أجزاء القول . لما كانت المشاكلة مما يحوج إلى دقة نظر ولطف فهم، فقد غاب عن رواة الكلام ما لم يغب عن أصحابه . في ضوء مبدأ الانتظام المعنوى والاتصال الكلامى يمكن أن ننظر إلى ما وقع فيه الخلل من الشعر بين الرواة نظرة مقابلة بين " نص الشاعر" و " نص الراوى ". ربما كان الكلام في" نص الراوى " متشاكلا، ولكنه في " نص الشاعر " أشكل وأدخل في استواء النسج . يذكر ابن طباطبا أن البيتين التاليين قد رويا لامرئ القيس هكذا :

كأني لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخيلي كرى كرة بعد إجفال

هكذا الرواية . قال ابن طباطبا :" وهما بيتان حسنان . ولو وضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر، كان أشكل وأدخل في استواء النسج، فكان يروى :

كأني لم أركب جوادا، ولم أقل لخيلي كرى كرة بعد إجفال

ولم أسبا الزق الروى للـــذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال[٢٥]

يقضى مبدأ انتظام المعاني واتصال الكلام أن يكون نص الشاعر هو المتمتع بالمشاكلة ؛ وذلك أن ركوب جواده في المصراع الأول يشاكله أمر خيله بالكر في المصراع الثاني . الكلام هكذا متصل، والمعاني هكذا منتظمة . وهذا مادق ولطف على الراوى، فلم يفطن إليه في نص روايته . نص الشاعر ونص الراوى مقابلة بين نص مسبوك محبوك ونص مسبوك فحسب .

ويذكر ابن طباطبا أبياتا أخرى رويت وقد خلت من المشاكلة، من ذلك قول طرفة:

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد

قال ابن طباطبا :" فالمصراع الثاني غير مشاكل للأول "[٢٦]. ينبغي للكلام بعد الاستدراك بـ (لكن) أن يأخذ بسبب بما قبله . الأحرى - في التعليق- أن يقابل المثبت بعد (لكن) المنفى قبلها . لم يقع هذا في البيت . في مثل هذه الرواية فسد السبك والحبك جميعا، ومن ثم خلت من المشاكلة .

(د) وقال أبو هلال العسكرى (ت٣٩٥هـ) :" ينبغي أن تجعل كلامك مشتبها أوله بآخره، ومطابقا هاديه لعجزه، ولاتتخالف أطرافه، ولا تتنافر أطراره، وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها، ومقرونة بلفقها ومثال ذلك من الكلام المتلائم الأجزاء، غير المتنافر الأطرار قول أخت عمرو ذى الكلب :

فأقسم ياعمرو لو نبهاك إذا نبها منك داء عضالا
إذا نبها ليث عريسة مفيتا مفيدا نفوسا و مالا
وخرق تجاوزت مجهوله بوجناء حرف تشكى الكلالا
فكنت النهار به شمسه وكنت دجى الليل فيه الهلالا

فجعلت الشمس بالنهار، والهلال بالليل . وقالت: مفيتا مفيدا، ثم فسرت فقالت: نفوسا ومالا"[٢٧].

في كلام أبي هلال مايفيد وعيه بتناسق حقول الدلالة بين أجزاء الكلام، كما يفيد وعيه بإحدى العلاقات الدلالية التي توفر للخطاب حبكا ؛ وهي علاقة التفسير، تفسير المجمل . ومازلنا نرى في إشارته إلى اشتباه أول الكلام بآخره، ومطابقة هواديه لأعجازه ما يجمعها بمبدأ انتظام المعاني واتصال الكلام عند ابن طباطبا .

جعل أبو هلال - في نصه السابق - الاشتباه والمطابقة وتلاؤم الأجزاء أمورا واجبة في صنعة الكلام . في موضع آخر، أوجب أبو هلال في صنعة الكلام شروطاً نجملها في:

- تخير الألفاظ على ما يوجب التئام الكلام .

- " أن يكون موقع الكلام في الإطناب والإيجاز أليق بموقعه، وأحق بالمقام والحال"(٢٨).

الشرط الأول من أحسن نعوت الكلام، والثاني يجعل الكلام جامعاً الحسن. أما الشرط الثالث، فهو:

- " أن تكون موارده تنبيك عن مصادره، وأوله يكشف قناع آخره " . وبتوفر هذا الشرط يكون الكلام - من وجهة نظر أبي هلال - " قد جمع نهاية الحسن، وبلغ أعلى مراتب التمام "(٢٩).

إنباء موارد الكلام عن مصادره وكشف أوله قناع آخره مظاهر دالة على توفر خاصية الحبك بين أجزائه. ولعل في إشارة أبي هلال إلى واقعات الإجازة ما ينم عن وعي بمفهوم الحبك الطولي أو المتدرج الذي تتم معه القضية المعبر عنها في الجملة. يقول أبو هلال: " أخبرني أبو أحمد، قال: كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب نختلف إلى مدرك، نتعلم منه علم الشعر، فقال لنا يوما: إذا وضعتم الكلمة مع لفقها كنتم شعراء، ثم قال: أجيزوا هذا البيت:

ألا إنما الدنيا متاع غرور

فأجازه كل واحد من الجماعة بشئ، فلم يرضه، فقلت:

وإن عظمت في أنفس وصدور

فقال: هذا هو الجيد المختار .

وأخبرنا أبو أحمد الشطني، قال: حدثنا أبو العباس بن عربي، قال: حدثنا حماد عن يزيد بن جبلة، قال: دفن مسلمة رجلا من أهله، وقال:

نروح ونغدو كل يوم وليلة

ثم قال لبعضهم: أجز، فقال: فحتى متى هذا الرواح مع الغدو، فقال مسلمة: لم تصنع شيئا. فقال آخر: فيالك مغدى مرة ورواحا، فقال: لم تصنع شيئا. فقال لآخر: أجز أنت، فقال:

وعما قليل لا نروح ولا نغدو

فقال: الآن تم البيت"(٣٠).

تمام البيت والجيد المختار فيه بما يتم قضية، يأتي الجزء فيها مع لفقه. هذا ما ينتهي إليه الحد في صنعة الكلام عند أبي هلال، وهذا ما يجعل الكلام يبلغ عنده أعلى مراتب التمام.

كان الحسين بن وهب (ت ٣٣٧ هـ) قد أضاف" حسن النظام" إلى حد البلاغة؛ قال: "وقد ذكر الناس البلاغة ووصفوها بأوصاف لم تشتمل على حدها. وذكر الجاحظ كثيرا مما وصفت به، وكل وصف منها يقصر عن الإحاطة بحدها. وحدها عندنا: القول المحيط بالمعنى المقصود، مع اختيار الكلام، وحسن النظام، وفصاحة اللسان وزدنا حسن النظام ؛ لأنه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن الآتي على المعنى ولا يحسن ترتيب ألفاظه، وتصيير كل واحدة مع ما يشاكلها، فلا يقع ذلك موقعه"(٣١). ويضرب ابن وهب على المشاكلة مثلا في قوله: "فمما أتى في نهاية النظر قول أمير المؤمنين – عليه السلام – في بعض خطبه: "أين من سعى واجتهد، وجمع وعدد، وزخرف ونجد، وبنى وشيد؟"– فأتبع كل حرف بما هو من جنسه، وما يحسن معه نظمه. ولم يقل :"أين من سعى ونجد، وزخرف وشيد، وبنى وعدد". ولو قال ذلك لكان كلاما مفهوما، ومن قائله مستقيما، وكان مع ذلك فاسد النظم، قبيح التأليف"(٣٢).

لعل كلام ابن وهب في علاقة المشاكلة المعنوية يؤكد مقولة ليفاندوفسكي أن الحبك شرط لغوي يسهم في فهم السبك فهما أعمق. إذا كانت العلاقة بين"بنى وشيد" علاقة المشاكلة بين عنصري عبارة، فلا وجود لمثل هذه المشاكلة إذا دخل في العبارة نفسها أحد هذين العنصرين مع آخر من عبارة أخرى. سوف يغيب السبك – على معنى جودة التأليف – إذا غاب الارتباط الدلالي

بين المعطوف والمعطوف عليه. والتمييز فى هذه الحال لا يكون بين كلام مفهم وآخر غير مفهم، ولكنه سيكون بين كلام مفهم وآخر مفهم مسبوك محبوك.

وكان ابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) قد أطلق على مثال ابن وهب السابق اسم "المتناسب". وفسره بإتباع كل لفظة ما يشاكلها، وقرنها بما يشبهها[٣٣].

(هـ) ويقول أسامة بن منقذ (ت حوالى ٥٣٠ هـ): "وأما السبك فهو أن يتعلق كلمات البيت بعضها ببعض من أوله إلى آخره، كقول زهير:

يطعنهم ما ارتموا، حتى إذا طعنوا
ضارب، حتى إذا ما ضاربوا عتقا

ولهذا قال: خير الكلام المحبوك المسبوك الذى يأخذ بعضه برقاب بعض"[٣٤].

هذا النص من النصوص المهمة فى تعريف السبك. ولعل فى كلام أسامة وفى شاهده ما يرجح استنباط اشتمال السبك عنده على التعلق النحوى والمعجمى معا. والسبك المعجمى هو - كما نعرف - النوع الأخير من أنواع السبك عند هاليداى. ولعل فى قوله "خير الكلام المحبوك المسبوك" ما ينبه إلى وعيه بأثر معيارى الحبك والسبك بخاصة فى صناعة الكلام أو النص، فضلا عما يمكن أن يلمح إليه تقديم الحبك من عناية واهتمام.

وتذكر ثنائية السبك والحبك عند أسامة بثنائية الجسم والروح عند ابن طباطبا. إذا كان السبك جسم الكلام فالحبك روحه. الجسم اللفظ والروح المعنى. اللفظ إتقان والمعنى إبداع. وواجب على صانع الكلام تحسين الجسم وتحقيق الروح. يقول ابن طباطبا: "فواجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعة متقنة لطيفة مقبولة مستحسنة مجتلبة لمحبة السامع له والناظر بعقله إليه... فيحسنه جسما ويحققه روحا؛ أى يتقنه لفظا ويبدعه معنى"[٣٥].

(و) ويعبر ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) عن فكرة المشاكلة عند أبى هلال أو التناسب عند ابن رشيق، باسم "المؤاخاة بين المعانى". ولا شك أن المشاكلة والتناسب والمؤاخاة عند هؤلاء جميعا، إنما هى مظاهر للحبك فى مصطلح أسامة. ما معنى المؤاخاة بين المعانى عند ابن الأثير؟ يقول ابن الأثير: " أما المؤاخاة بين المعانى، فهو أن يذكر المعنى مع أخيه، لا مع الأجنبى. مثاله أن تذكر وصفا من الأوصاف وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به. فإن ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قدحا فى الصناعة، وإن كان جائزا. فمن ذلك قول الكميت:

أم هل ظعائن بالعلياء رافعة ... وإن تكامل فيها الدل والشنب

فإن الدل يذكر مع الغنج وما أشبهه. والشنب يذكر مع اللعس وما أشبهه. وهذا موضع يغلط فيه أرباب النظم والنثر كثيرا. وهو مظنة الغلط؛ لأنه يحتاج إلى ثاقب فكرة وحذق، بحيث توضع المعانى مع أخواتها لا مع الأجنبى منها"[٣٦].

وقد عاب ابن الأثير على بعض الشعراء تباعدهم فى القول وأنهم لا يراعون المؤاخاة بين المعانى. لاحظ ابن الأثير أن أبا نواس "يقع فى ذلك كثيرا"[٣٧]. من ذلك مثلا قول أبى نواس فى وصف الديك:

له اعتدال وانتصاب قد ... وجلده يشبه وشى البرد

كأنه الهداب فى الفرند ... محدودب الظهر كريم الجد

قال ابن الأثير: "فإنه ذكر الظهر وقرنه بذكر الجد، وهذا لا يناسب هذا؛ لأن الظهر من جملة الخلق، والجد من النسب. وكان ينبغى أن يذكر مع الظهر ما يقرب منه ويؤاخيه"[٣٨]. لم تطرد لأبى نواس القضية المذكورة فى البيت، ولم يحسن أن يربط بين عناصرها؛ فأفسد مبدأ انتظام المعنى الذى هو قوام الحبك فى نظرية النص المعاصرة والذى سبق إليه ابن طباطبا فى عياره.

وقد نظر ابن الأثير – فى موضع آخر – إلى ما أسماه بـ" الملاءمة" و" المناسبة" من منظور مقابلة الجملة بالجملة. والمقابلة فن بديعى يقوم على علاقة دلالية بين المنطوقات هى علاقة "التقابل". ضرب ابن الأثير على ذلك مثلا من الشعر قول أبى الطيب:

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

قال ابن الأثير: "وقد أوخذ على ذلك، وقيل: لو جعل آخر البيت الأول آخرا للبيت الثانى وآخر البيت الثانى آخرا للبيت الأول لكان أولى.

ولذلك حكاية، وهى أنه لما استنشده سيف الدولة يوما قصيدته التى أولها: "على قدر أهل العزم تأتى العزائم". فلما بلغ إلى هذين البيتين قال: قد انتقدتهما عليك، كما انتقد على امرئ القيس قوله:

كأنى لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخيلى كرى كرة بعد إجفال

فبيتاك لم يلتئم شطراهما، كما لم يلتئم شطرا بيتى امرئ القيس، وكان ينبغى لك أن تقول:

وقفت وما فى الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك فى جفن الردى وهو نائم

فقال المتنبى: إن صح أن الذى استدرك على امرئ القيس هذا أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا. ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك؛ لأن البزاز يعرف جملته والحائك يعرف تفاصيله، وإنما قرن امرؤ القيس النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السماحة بسباء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء. وكذلك لما ذكرت الموت فى صدر البيت الأول أتبعته بذكر الردى فى آخره؛ ليكون أحسن تلاؤما. ولما كان وجه المنهزم الجريح عبوسا وعينه باكية، قلت: ووجهك وضاح وثغرك باسم؛ لأجمع بين الأضداد"(٣٩).

والحق أن تأمل شعر أبى الطيب يدلنا على أن أحدا من الشعراء لم يبلغ فى الجمع بين الأضداد مبلغه على الإطلاق. ولعله فنه الأول الذى يقود- مع فنون أخرى- إلى القول بتميزه بإحساس عال فى رعاية الموقف. على أن الذى يعنينا هنا أن الحكاية السابقة تبرهن على أن ملاحظة المواءمة المعنوية بين المنطوقات والمفاهيم تحوج إلى تأمل وإرهاف فكر. وقد بلغ أمر المواءمة فى إطار تقابل المعانى عند ابن الأثير مبلغا حدا به إلى أن يقول: "وهذا الباب ليس فى علم البيان أكثر منه نفعا ولا أعظم فائدة"(٤٠).

فضلا عما سبق، فإن أكثر ما استنبطه البلاغيون من كلام العرب من فنون البديع المتعلقة بالمعنى، إنما تظهر علاقات دلالية مختلفة بين المنطوقات والمفاهيم، يتحقق عن طريقها الحبك. يدل التفريق وجمع المؤتلف والمختلف على علاقة المقارنة، ويدل الرجوع والمقابلة والعكس والتبديل على علاقة التقابل، ويدل التفسير والتقسيم واللف والنشر على علاقة التبعية فى هيئة: الإجمال – التفصيل، ويدل الاستشهاد والاحتجاج على علاقة دلالية رابطة ثنائية قائمة على المقارنة، وتدل المزاوجة على علاقة منطقية فى هيئة: الشرط – الجواب ... الخ. سبق دكتور جميل عبد المجيد إلى محاولة ربط الفنون البديعية المعنوية بالعلاقات الدلالية التى تناسبها عند يوجين نايدا Eugene Nida فى بحثه: "العلاقات الدلالية بين الأبنية النووية Semantic Relations between Nuclear Structures"(٤١).

ولكن فاته عدد غير قليل من تلك الفنون البديعية المعنوية التى نرى لها أثرا مباشرا فى تحقيق الحبك بين منطوقين أو أكثر؛ كالسلب والإيجاب، والاستشهاد والاحتجاج.

السلب والإيجاب أن تبنى الكلام على نفس الشئ من جهة وإثباته من جهة أخرى، أو الأمر به فى جهة والنهى عنه فى جهة، وما يجرى مجرى ذلك؛ كقوله تعالى: "ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما". ومثاله من النثر قول الشعبى للحجاج: "لا تعجب من المخطئ كيف أخطأ، واعجب من المصيب كيف أصاب"[٤٢].

يظهر السلب والإيجاب علاقة دلالية ثنائية تقابلية. أما الاستشهاد والاحتجاج، فأن تأتى بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجرى مجرى الاستشهاد على الأول والحجة على صحته. من شواهده الشعرية عند أبى هلال قول الشاعر:

إنما يعشق المنايا من الأقـ ـوام من كان عاشقا للمعالى

وكذاك الرماح أول ما يكـ ـره منهن فى الحروب العوالى[٤٣]

وقد سبقت الإشارة إلى أن الاستشهاد والاحتجاج ينبغى له أن يكشف عن علاقة دلالية رابطة ثنائية قائمة على المقارنة.

حصيلة ما سبق أن القدماء - فى إطار مبحث صناعة الكلام ونحوه - قد برهنوا على مكانة خاصيتى السبك والحبك اللغويتين. خير الكلام عندهم المسبوك المحبوك. تجاوزت هذه المقولة حد النظر إلى التطبيق. أسوق مثالا على ذلك ما انتهى إليه الآمدى (ت ٣٧٠هـ) فى إطار وقوفه على خطاب شاعرى موازنته أبى تمام (ت ٢٣١ هـ) والبحترى (ت ٢٨٤ هـ). يقول الآمدى: "وإذا جاء لطيف المعانى فى غير ملاءمة ولا سبك جيد ولا لفظ حسن، كان ذلك مثل الطراز الجديد على الثوب الخلق، أو نفث العبير على خد الجارية القبيحة الوجه"[٤٤].

دل القدماء على خاصية الحبك اختصارا، ولكنهم أفاضوا - إلى حد ما - فيما يعد من مظاهره. أخص بالذكر هنا مظهر التجانس ومظهر انتظام المعانى. عبروا عن التجانس بين عناصر المنطوق الواحد أو بين المنطوقين المتواليين بمفاهيم عدة كالمشاكلة والمواءمة والتناسب والمؤاخاة وغيرها. وأما المظهر الآخر فقد عبروا عنه بانتظام المعانى واتصال الكلام على نحو ما رأينا عند ابن طباطبا.

يمكن أن نجد لمبدأ انتظام المعانى صدى فى تحليل الخطاب الشعرى عند الآمدى أيضا. أضرب مثالا على ذلك بما قاله عن هذا المطلع للبحترى:

هب الدار ردت رجع ما أنت سائله وأبدى الجواب الربع عما تسائله

قال الآمدى: "وهذا بيت غير جيد؛ لأن عجز البيت مثل صدره سواء فى المعنى، وكأنه بنى الأمر على أن الدار غير الربع، وأن السؤال إن وقع وقع فى محلين اثنين"[٤٥]. لم ينتظم المعنى فيما سبق، ولم يتصل الكلام فى العجز بالصدر اتصالا يدفع إلى توالى المعلومات وتسلسلها والانتقال من مذكور إلى جديد، إنما سكن المعنى على المصراع الاول.

لم تكن المفاهيم السابقة وليدة المصادفة، إنما وقفوا عليها فى تعرفهم على شروط القول البليغ وفى تبيان ما ينبغى توفره من معايير لغوية أساسية فى صناعة الكلام. وقد عرض القدماء تلك المفاهيم من خلال نماذج استعمال لغوى حقيقى، وإن ظل الشعر يخايلهم - كلما وقفوا على مفهوم - أكثر من فنون النثر الأخرى.

ومهما يكن من أمر، فإن حيز التحليل لم يجاوز غالبا المنطوقين أو البيتين من الشعر. ولا تكتمل منظوراتهم إلا بما نراه أهم من ذلك ؛ وهو ما عرضوه من آراء وتبصرات عن بنية النص من منظور الحبك الدلالى، فضلا عما كشفوا عنه من مظهر للحبك لا نرى مثيلا له فى النظرية اللغوية المعاصرة؛ وهو الكشف عن العلاقات الدلالية بين النصين المتواليين فى مدونة كبرى من منظور التناسب المعنوى.

٣- بنية النص من منظور الحبك

كان باب "المبدأ والخروج والنهاية" – في إحدى تسمياته – حقلا خصبا نمت فيه تصوراتهم عن مواصفات البناء الموضوعي النموذجي لنص محبوك دلاليا، من حيث إن النص وحدة من اللغة في حال الاستعمال.

كان القدماء قد عرضوا لفكرة استقلال البيت في النص الشعري استقلالا معنويا. يفسر ابن الأثير مثلا هذه الفكرة في ارتباطها بالنفس تفسيرا فسيولوجيا على النحو التالي: "لما كان النفس لا يمتد في البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه، احتيج إلى أن يكون الفصل في المعنى"(٤٦). ويشير ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) إلى استقلال البيت في النص بالإفادة مع رعاية مبدأ التناسب في الوقت عينه قائلا: "وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه حتى كأنه كلام وحده، مستقل عما قبله وعما بعده. وإذا أفرد كان تاما في بابه في مدح أو تشبيب أو رثاء، فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك في البيت ما يستقل في إفادته، ثم يستأنف في البيت الآخر كلاما آخر كذلك"(٤٧).

حقيقة الأمر هنا ينبغي لها أن تكون استقلال البيت عن غيره من حيث هو وحدة تركيبية ومعنوية، لها كيانها الخاص، ولكنه الكيان الخاص الذى يتصل بما قبله وما بعده – داخل وحدة النص العامة أو وحدة المقطع من النص على الأقل – اتصال الجزء بالكل. يؤكد ذلك على مستوى النظر رؤية ابن خلدون نفسه القصيدة سلسلة متصلة تبنى فيها المقاصد والمعاني على التناسب: "ويستطرد للخروج من فن إلى فن ومن مقصود إلى مقصود، بأن يوطئ المقصود الأول ومعانيه إلى أن تناسب المقصود الثاني، ويبعد الكلام عن التنافر "(٤٨).

في تحليل بنية النص من منظور الحبك (أو التناسب) وقف القدماء على الابتداء والتخلص والانتهاء من حيث هي مؤشرات بنائية خاصة في نسيج النص الشعري والنثري جميعا . وقد زادوا على ذلك اختبار مدى رعاية التناسب بين وحدات النص المختلفة في هيئة المقاطع أو ما سمي بالفواصل، فضلا عن رعاية التناسب بين أبيات الفصل الواحد .

وقد رأيت أن أفرد لمعيار التناسب عند حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) منظوراً إليه من خلال بنية النص الشعري الكامل - جزءاً خاصا من هذه الدراسة؛ وذلك أن آراءه ومنظوراته إلى ذلك المعيار يرتبط بعضها ببعض ويكمل بعضها بعضا، لاسيما أن الأمر عنده قد تجاوز الملاحظة والوصف العاجلين إلى التقنين والتأصيل النظري المتأني .

(أ) بنية النص من منظور الحبك قبل حازم

يعنينا هنا أمران اثنان: أحدهما معرفة الشروط التى أوجب القدماء توفرها في كل من الابتداء والتخلص والانتهاء، لاسيما ما يتصل منها بالمعنى، والأمر الآخر هو محاولة استخلاص المبادئ الجوهرية التى وجهت علاقة كل من الابتداء والتخلص والانتهاء بسائر أجزاء النص تحقيقاً للترابط المضموني فيما بينها وإنجازاً للعلاقات المنطقية التى تبنى وحدتها الدلالية .

١ـ الابتداء

هو الابتداء والمبدأ والمبتدأ والفاتحة والافتتاح والمفتتح والاستفتاح والمقدمة والتصدير والمطلع والاستهلال . لعل أقدم الإشارات إلى بلاغة الابتداء ما أورده الجاحظ عن عبد الله بن المقفع (ت ١٤٢هـ) وشبيب بن شيبة . جعل ابن المقفع البلاغة اسما جامعا لمعان تجرى في وجوه كثيرة وذكر من هذه الوجوه " ما يكون في الابتداء "(٤٩). وروى الجاحظ عن شبيب قوله: " الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء، وبمدح صاحبه، وأنا موكل بتفضيل جودة المقطع وبمدح صاحبه"(٥٠). ولعل إشارة الجاحظ إلى العلاقة بين " دقة المدخل " و " إظهار المعنى " أولى بأن تنصرف إلى الابتداء(٥١).

الابتداء هو الوحدة البنائية الأولى من النص . وهي وحدة سمعية ومعنوية تفتح للخطاب قناة الاتصال . إذا كان الشعر قفل، فأوله ـ كما يقول ابن رشيق ـ مفتاحه . وينبغي للشاعر أن يجود

ابتداء شعره ؛ فإنه أول ما يقرع السمع ، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة[٥٢]. عرف هذه الحقيقة منتجو النصوص ومحللوها جميعا. وليس كلام ابن شيبة السابق مما يحمل على مقصد إضعاف شأن الابتداء، لكنه ميل خاص به إلى مؤشر بنائى آخر من الكلام يرى له شأنا أخطر. لقد عرف ابن شيبة نفسه ـ كما يخبرنا الجاحظ ـ بحلاوة الابتداء ورشاقته وسهولته وعذوبته[٥٣].

كان حسن الابتداء من معايير تحليل النص الأدبى عند القدماء . بحسن الابتداء يتمايز الشعراء . شهر شعراء كثيرون به، من طليعتهم أبو الطيب وأبو تمام وأبو نواس والبحترى . يرى ابن رشيق أن جودة الابتداء من أجل محاسن أبى الطيب وأشرف مآثر شعره[٥٤]. ويطلب القاضى الجرجانى أن يغتفر لأبى الطيب ما عيب من ابتداءاته ؛ لما له من ابتداءات كثيرة حسنة[٥٥].

السؤال الآن: ما شروط المبدأ المستحسن عند القدماء ؟ . أشير إلى أن ما قرره القدماء نصا لا يأتى على جميع الشروط التى رغبوا فى توفيرها فى المبدأ . إذا كانت تلك الشروط ملفوظة، فهناك شروط أخرى ملحوظة مما ضربوه من أمثلة وشواهد ينبغى لها أن تؤخذ فى الحسبان . يتيح لنا الأمران أن نصنف تلك الشروط جميعا على النحو التالى:

(الشرط الأول) شرط الصياغة: ويقصد به حسن اختيار اللفظ وصحة السبك جميعاً . وينبغى أن يضاف إلى شرط الصياغة اعتبارات أسلوبية أخرى ؛ مثل تجنب الحشو، وتجنب المعاظلة ونحوهما .

(الشرط الثانى) الشرط المعنوى: ويقصد به وضوح المعنى، وارتباط المبدأ بما بعده ودلالته عليه فى الوقت نفسه . وسوف نفصل ذلك .

(الشرط الثالث) الشرط المقامى: ويقصد به ـ من خلال ملاحظاتهم المتفرقة ـ أمور عدة، نوجزها فيما يلى:

(أولا) رعاية حال المخاطب: فإذا خرج المبدأ عن ذلك المعيار كان معيبا. من أجل ذلك عيب مثلا مطلع قصيدة للبحترى فى مدح أبى الحسن عبد الملك بن صالح الهاشمى. وهو قوله:

فؤاد ملاه الحزن حتى تصدعا وعينان قال الشوق: جودا معا معا

قال ضياء الدين بن الأثير: " وكذلك استقبح قول البحترى "فؤاد ملاه البيت". فإن ابتداء المديح بمثل هذا طيرة ينبو عنها السمع . وهو أجدر بأن يكون ابتداء مرثية لا مديح "[٥٦].

لاشك أن المخاطب كان قد هيأ نفسه فى هذا الوقت أن يسمعه البحترى ما يروقه وما تسر به نفسه، فلم يراع البحترى حاله، وفاجأه بما يناسب الرثاء من كلام عن فؤاد حزين وعينين تجودان بالدمع !. وكان ابن رشيق قد التفت إلى زمن الخطاب وحال المخاطب وجعل رعاية الأمرين من الفطنة والحذق، يقول : " والفطن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها، وينظر فى أحوال المخاطبين، فيقصد محابهم، ويميل إلى شهواتهم وإن خالفت شهوته، ويتفقد ما يكرهون سماعه، فيجتنب ذكره "[٥٧].

(ثانيا) رعاية الدور الاجتماعى للمخاطب: وقد عبر ابن طباطبا عن هذا المعيار باشتراطه أن يعد المتكلم " لكل طبقة ما يشاكلها، حتى تكون الاستفادة من عقله فى وضعه الكلام مواضعه أكثر من الاستفادة من قوله فى تحسين نسجه وإبداع نظمه "[٥٨].

(ثالثا) رعاية الموقف الخارجى: فإذا كانت القصيدة فى حادثة من الحوادث، كفتح معقل أو هزيمة جيش ونحو ذلك، فإنه لا ينبغى للشاعر أن يبدأ فيها بغزل. وقد أصاب ابن الأثير حين ربط بين بدء الشاعر ـ فى مثل هذه الحال ـ بالغزل وبين جهله بوضع الكلام فى مواضعه[٥٩]. ينصرف ذلك إلى معنى جهله تقدير الموقف الاتصالى الخارجى وما يناسبه من كلام .

السؤال الأهم الآن: ما المبادئ الجوهرية التى تستخلص من كلامهم عن علاقة المبدأ بما بعده والتى تتصل بخاصية الحبك النصى اتصالا مباشرا ؟.

يمكن القول بأن القانون الدلالى الجوهرى الذى يحكم علاقة المبدأ بما بعده، هو ما عبر عنه ابن رشيق بقوله: " **أن يكون دالا على ما بعده** "(٦٠).

أجمل ابن رشيق القانون السابق إجمالا. وفى كلام ابن الأثير – فى صدر فصله عن " المبادئ والافتتاحات " – ما نراه تفصيلا لذلك المجمل. يقول ابن الأثير: " وحقيقة هذا النوع أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالا على المعنى المقصود من هذا الكلام: إن كان فتحا ففتحا، وإن كان هناء فهناء، أو عزاء فعزاء. وكذلك يجرى الحكم فى غير ذلك من المعانى. وفائدته أن يعرف من مبدأ الكلام ما المراد به، ولم هذا النوع "(٦١).

دلالة المبدأ على ما بعده تعنى بالضرورة تحقق المناسبة المعنوية بينهما. وقف أبو القاسم الكلاعى (ت.٥٥هـ) على ملاحظة هذه المناسبة بين الرسائل وصدورها. عرض الكلاعى طائفة من صدور الرسائل التى شدها التناسب إلى الإنباء عن المضمون وطبقة المخاطب. نلحظ ذلك من تأمل الصدور التالية:

- أطال الله بقاء أمير المؤمنين (مخاطبة الأمراء).
- أما بعد، أحسن الله توفيقك، ونهج إلى الرشد طريقك (يكتب به عن الأمراء إلى من مرق عن الطاعة).
- سلام على من اتبع الهدى وتجنب سبل الضلالة والهوى (يستفتح به عنهم إلى زعماء الروم).
- أمدك الله أيها الولى الأخص والخليل الأخلص بالتقوى (يكتب به عنهم إلى القضاة والفقهاء).
- كتابنا، أمدك الله بتقواه (يكتب به عنهم إلى سائر العمال).
- يابنى، ومن سلمه الله وأبقاه (يكتب به الأب إلى ولده) .
- ياMولاى وجمال دنياى (يكتب به الولد إلى والده) (٦٢).

ويرى أبو الفتح عثمان بن جنى (ت٣٩٢هـ) أن من الحذق أن يشير المرسل فى تحميده إلى الغرض من الرسالة: " وإذا كان المرسل حاذقا أشار فى تحميده إلى ما جاء بالرسالة من أجله "(٦٣). والكلاعى على رأى أبى الفتح(٦٤). وقد جرى مجراهما ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) . يرى ابن الأثير أن " المناسبة المعنوية " من أوكد أركان الكتابة. وقد أخذ على أبى إسحق الصابى إخلاله كثيرا بهذا الركن ؛ وذلك أنه يأتى بتحميدة فى الكتاب من الكتب السلطانية، لا تكون مناسبة لمعنى ذلك الكتاب. من أمثلة ابن الأثير على ذلك ما كتبه أبو إسحق فى ابتداء كتاب عن فتح بغداد وهزيمة الأتراك عنها، وكان فتحا عظيما: " الحمد لله رب العالمين، الملك الحق المبين، الوحيد الفريد، العلى المجيد، الذى لا يوصف إلا بسلب الصفات ولا ينعت إلا برفع النعوت، الأزلى بلا انتهاء . الخ ". قال ابن الأثير معقبا: " وهذه التحميدة لاتناسب الكتاب الذى افتتح بها، ولكنها تصلح أن توضع فى صدر مصنف من مصنفات أصول الدين وأما أن توضع فى صدر كتاب فتح فلا "(٦٥).

وقوف ابن الأثير على مثل النموذج السابق دليل على ندرة وقوعه. كان المعتاد بين كبار المنشئين رعاية المناسبة المعنوية بين الابتداء ومضمون الرسالة. وعلى كل حال، فإن عناية أبى القاسم الكلاعى وابن الأثير بالنظر فى إنشاء الرسائل من منظور المناسبة المعنوية، دليل عملى بين على وعيهما بخاصية الحبك النصى. فى مقابل نموذج أبى إسحق الصابى نرى نماذج عدة عند الكلاعى وابن الأثير روعيت فيها المناسبة. من نماذج الكلاعى ابتداء رسالة لمحمد بن عبد الله أبى جعفر المشهور بابن عبد كان (ت ٢٧٠ هـ) جمع فيها ذكر استقامة الحال بين أبى الحسن خمارويه (ت ٢٨٢ هـ) وبين المعتضد أحمد بن طلحة الخليفة العباسى (ت ٢٨٩ هـ)، وهو قوله: " الحمد لله مقلب القلوب، وعلام الغيوب، الجاعل بعد عسر يسرا، وبعد تحارب اجتماعا"(٦٦).

٢ـ التخلص:

هو التخلص والخروج والتوسل . قال ابن رشيق: " ومن الناس من يسمى الخروج تخلصاً وتوسلا "(٦٧).

لعل التخلص أسبق من غيره استخداما . ولعل أقدم إشارة إلى التخلص ما جاء فى كلام ثمامة بن أشرس (ت ٢١٣ هـ): " مارأيت أحدا كان لا يتحبس ولا يتوقف، ولا يتلجلج ولا يتنحنح، ولايرتقب لفظا قد استدعاه من بعد، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه، أشد اقتدارا ولا أقل تكلفا، من جعفر بن يحيى"(٦٨). وجعفر بن يحيى هذا، هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى، من كبار البرامكة الذين قتلهم الرشيد . ويستنتج من ربط التخلص بالمتحدث عنه عموم التخلص فى كل كلام، وأنه ليس وقفاً على الشعر، وإن عالجه أكثر القدماء من خلال نماذج شعرية.

أما اصطلاح " الخروج " فلعل أقدم إشارة إليه ترجع إلى أبى العباس ثعلب (ت ٢٩١ هـ) فى كتابه " قواعد الشعر " . وقد تبعه فى استخدام " الخروج " عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ) الذى جعل " حسن الخروج " من أنواع الالتفات. ومن شواهد " حسن الخروج " عند ابن المعتز قول أبى العتاهية :

وأحببت من حبها الباخلين   حتى وَمِقت ابن سلم سعيدا
إذا سيل عُرفا كسا وجهَهُ   ثيابا من المنع صفرا وسودا(٦٩)

رادف الخروج التخلص عند غير واحد من القدماء، ومنهم ابن طاطبا والقاضى الجرجانى . ولكن يحيى بن حمزة يستخدم التخلص، كما يستخدم أبوهلال وابن رشيق الخروج غالبا .

عرف التخلص فى غير الشعر . وقع التخلص فى النص القرآنى . ممن عنوا بالتخلص فى القرآن يحيى بن حمزة العلوى (ت ٧٤٥ هـ) . التخلص عنده " عبارة عن الخروج إلى المقصد المطلوب عقيب ما ذكره من قبل . ومثاله قوله تعالى من سورة المدثر: " يأيها المدثر قم فأنذر "، ثم تخلص بعد ذلك إلى ما هو المقصود بقوله: " ذرنى ومن خلقت وحيدا " ؛ فلما اتعظ الرسول بالأمر بالإنذار، عقبه بالوعيد الشديد للوليد بن المغيرة بقوله: " ذرنى ومن خلقت وحيدا" إلى آخر الآيات . وهكذا فى كل سورة تجده يتخلص إلى المقصود بأعجب خلاص"(٧٠).

عنى أبو القاسم الكلاعى ببيان التخلص فى الرسائل . أفرد الكلاعى بإحكامه فصلا بعنوان " فى التخلص من الصدور إلى الغرض المذكور " . الرسالة ـ فى رأيه ـ ابتداء خطاب أو رد جواب . مما توصلوا به من الألفاظ فى ابتداء الخطاب إلى غرض الكتاب:

- قولهم " كتبت "، مثل : كتبتِ وقد هبت ريح النصر من مهبها، والأرض مشرقة بنور ربها ".
- أو " كتابى "، مثل: " كتابى أطال الله بقاء الأمير، وبودى أن أكونه فأسعد به دونه".

ومما توصلوا به من الألفاظ فى رد الجواب إلى غرض الكتاب:

- قولهم " ألقى "، مثل: " إنه ألقى كتاب كريم، عنوانه جسيم " .
- أو " وصل "، مثل: " وصل ـ وصل الله سعده، وأثل مجده ! ـ كتابه الكريم " (٧١).

ارتبط التخلص فى الشعر بطراز القصيدة المركبة، وهو الطراز الذى ألفه الذوق العربى، ومن ثم كانت هيمنته فى الشعر العربى القديم، وكان القدماء على صوت واحد فى استحسان التنويع فى الأغراض فى النص الشعرى الواحد، منذ أن قال الجاحظ " متى لم يخرج السامع من شئ إلى شئ لم يكن لذلك عنده موقع"(٧٢).

أفرزت القصيدة المركبة فى الجاهلية قوالب لغوية للتخلص من غرض إلى غرض ؛ نحو " دع ذا " و " عد عن ذا " . وربما تركوا المعنى الأول، وقالوا " وعيس " أو " وهوجاء " وما أشبه ذلك . وإذا أرادوا ذكر الممدوح قالوا: " إلى فلان " وأخذوا فى مديحه . وربما تركوا المعنى الأول وأخذوا

فى الثانى من غير أن يستعملوا مثل تلك القوالب ؛ وهو ما عرف باسم " الطفر " أو " الانقطاع "، وهو ما ظل عند بعض العباسيين كالبحترى[٧٣]. غير أن الموازنة بين الشعر العباسى وما قبله، من حيث استعمال الخروج، تكشف عن صحة ما انتهى إليه ابن طباطبا وأبو هلال العسكرى . لاحظ ابن طباطبا أن العباسيين قد " لطفوا القول فى معنى التخلص إلى المعانى التى أرادوها "[٧٤]. وكذلك لاحظ أبو هلال أن الخروج المتصل بما قبله كان قليلاً قبل شعراء العصر العباسى، ولكن العباسيين قد أكثروا من الخروج المتصل[٧٥].

السؤال المهم الآن: ما القانون الدلالى الذى يحكم التخلص تحقيقا لخاصية الحبك النصى ؟ .

لعل ابن طباطبا خير من وضع يده على هذا القانون من القدماء قبل حازم. ويمكن اختصاره فيما يلى:

- " **أن يصل المتكلم كلامه صلة لطيفة** " . وبيان ذلك عند ابن طباطبا فى موضعين من عياره . يقول ابن طباطبا فى الموضع الأول، وهو من باب " بناء القصيدة ": " ويسلك (يعنى الشاعر) منهاج أصحاب الرسائل فى بلاغاتهم وتصرفهم فى مكاتباتهم ؛ فإن للشعر فصولا كفصول الرسائل، فيحتاج الشاعر أن يصل كلامه ـ على تصرفه فى فنونه ـ صلة لطيفة، فيتخلص من الغزل إلى المديح، ومن المديح إلى الشكوى، ومن الشكوى إلى الاستماحة، ومن وصف الديار والآثار إلى وصف الفيافى والنوق بألطف تخلص وأحسن حكاية، بلا انفصال للمعنى الثانى عما قبله، بل يكون متصلا به وممتزجا معه "[٧٦].

أما الموضع الثانى، فيقول فيه: " ويكون خروج الشاعر من كل معنى يضيفه إلى غيره من المعانى خروجاً لطيفا ؛ حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا لاتناقض فى معانيها، ولا وهى فى مبانيها، ولا تكلف فى نسجها، تقتضى كل كلمة ما بعدها، ويكون ما بعدها متعلقا بها مفتقرا إليها "[٧٧].

من كلام ابن طباطبا فى الموضعين السابقين يمكن أن نلاحظ مايلى:

١ـ أن قياس فصول الشعر على فصول الرسائل، يعنى النظر إلى تعدد الأغراض بالقصيدة المركبة كتعدد محاور الخطاب بالرسالة . ولكن الذى يبدو لنا أن تعدد محاور الخطاب بالرسالة من تحميد إلى دعاء إلى أمر بفعل شئ الخ، ليس كتعدده فى القصيدة المركبة . التناسق بين المقاصد فى الرسالة أشد قوة منه بين الأغراض فى القصيدة المركبة . ولعل تقاليد النظم قد جعلت تعدد الأغراض على النحو الذى نعرفه أمرا مألوفا بين المرسلين والمستقبلين جميعاً . من ناحية أخرى، جعلت تلك التقاليد لتوالى الأغراض ـ فى الوقت نفسه ـ نظاماً لايخرج عنه الشاعر عادة[٧٨]، وهو نظام نرى له وجها من المناسبة ؛ حينما يوطئ الشاعر لمدحه ـ فى الظروف العادية ـ بغزل رقيق تنشط به النفس لسماعه، أو حينما يخرج من مدحه إلى شكوى الزمان وما لقيه فيه قبل أن يرى ممدوحه، أو حينما يخرج من مديحه إلى استماحته عذرا فيما وشى به الواشون الخ . هذه وجوه للمناسبة، أفسحت لها تقاليد النظم عند العرب مجالا للقبول . نرى كثيرا من الشعراء يخرجون فى قصائدهم المركبة من الافتخار إلى اقتصاص مآثر الأسلاف، ولكننا لم نسمع بشاعر خرج مثلا من الافتخار إلى وصف الجنادب والحرابى . مازال هناك نظام للنظم يجعل بين توالى الأغراض وجوها للمناسبة .

ومهما يكن من أمر، فإن قياس الشعر على الرسائل، يعنى أن التخلص غير مرتبط بجنس أدبى دون غيره ؛ هو عام فى كل كلام، مادامت الحاجة فيه إلى أكثر من فصل: شعرا أو رسالة أو غيرهما . القصيدة فى كلام ابن طباطبا إذا نموذج على كل نص . المهم حسن التصرف ولطف الصلة بين أجزائه، حتى لا تؤدى إلى خطاب مفكك الأوصال مبنى ومعنى .

٢ـ يفهم محمد خطابى كلمة " المعنى " فى كلام ابن طباطبا على أنها تعنى " الغرض " أو " الفن " ؛ يقول: " على أن المعنى هنا ينبغى أن يفهم فى سياقه، إذ المقصود به، فى نظرنا، الغرض أو الفن، مادام الحديث متمركزا هنا على اتصال فصول القصيدة "[٧٩].

والحق أن ابن طباطبا نفسه قد ذكر - فى نصه الأول - كلمة " فن " صراحة . وسياق كلامه كاملاً يجعل " المعنى " عنده مقصوداً به الغرض أو الفرع من فروعه ؛ وذلك أن التخلص من غزل إلى مديح تخلص من غرض إلى غرض، لكن التخلص من وصف الديار والآثار إلى وصف الفيافى والنوق هو تخلص من فرع لغرض الوصف إلى فرع آخر .

٣- إذا كانت وظيفة التخلص الأولية وظيفة معنوية ؛ هى حبك معنى بمعنى أو غرض بغرض، فقد لمح ابن طباطبا للتخلص وظيفة بنائية ؛ هى أن يصل منطوق التخلص بين بيت وبيت. فى ضوء ذلك نفهم كلامه عن دور التخلص فى الحصول على قصيدة (وبالتالى أى نص) مفرغة إفراغاً، خال نسجها من التكلف . من ناحية أخرى، فإن كلامه عن قصيدة خال نسجها من التكلف، تقتضى كل كلمة منها ما بعدها، وتتعلق ما بعدها بها ؛ إنما هو كلام نفهم منه أن لطف التخلص الحقيقى ليس فى لطفه فى ذاته فحسب، إنما ينبغى للشاعر (وبالتالى لكل متكلم) أن يتلطف فى جعل ما قبل التخلص مناسبا معنويا لما بعده بوجه من الوجوه .

وربما ناسب الشاعر بين ما قبل التخلص وما بعده، ولكن التخلص ذاته يبدو معيبا . من ذلك التخلص التالى فى قول أبى الطيب:

ها فا نظرى أو فظنى بى تَرَىْ حَرْقا   من لم يذق طرَفا منها فقد وَألا

علَّ الأمير يرى ذلى فيشفع لى   إلى التى تركتنى فى الهوى مثلا[٨٠]

قال ابن رشيق: " فقد تمنى أن يكون له الأمير قوادا "[٨١]. قال أبو العلاء المعرى (ت ٤٤٩ هـ) فى شرحه: " ووجه تشفعه إليها أن يصل جناحه بما يصل به إلى المراد بها، ويحظى عندها لمكانه منها "[٨٢]. وفى تأويل أبى العلاء تلطيف لايستطيع ردا لإساءة أبى الطيب خطاب ممدوحه. وكان أبو الطيب زمن نظم هذه القصيدة صبيا !

وكذلك جعل القاضى الجرجانى من تخلصات أبى الطيب المستكرهة قوله :

لو استطعت ركبت الناس كلهم   إلى سعيد بن عبد الله بعرانا[٨٣].

التخلص فى الموضعين السابقين معيب فى ذاته . وهو معيب فى ذاته مقاميا؛ لأنه خرج عما يليق بخطاب المدوحين . وإذا كان التخلص فى الموضعين وصل ما قبله بما بعده على سبيل الحبك بين معنيين أو غرضين انتقل الشاعر من أحدهما إلى الآخر، فلم تكن - للعلة الماضية - صلة لطيفة .

٣ - الانتهاء

أوجب أبو هلال العسكرى فى الانتهاء أو بيت الخاتمة أن يكون أجود بيت فى القصيدة؛ يقول: " فينبغى أن يكون آخر بيت قصيدتك أجود بيت فيها، وأدخل فى المعنى الذى قصدت له فى نظمها ؛ كما فعل ابن الزبعرى فى آخر قصيدة يعتذر فيها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ويستعطفه :

فخذ الفضيلة عن ذنوب قد خلت واقبل تضرع مستضيف تائب

فجعل نفسه مستضيفا . ومن حق المستضيف أن يضاف . وإذا أضيف فمن حقه أن يصان . وذكر تضرعه وتوبته مما سلف . وجعل العفو عنه مع هذه الأحوال فضيلة ؛ فجمع فى هذا البيت جميع ما يحتاج إليه فى طلب العفو "[٨٤].

أما ابن رشيق، فقد وصف الانتهاء بأنه " قاعدة القصيدة "[٨٥]. وبالقياس يكون الانتهاء قاعدة كل كلام من شعر أو غيره . وينبغى لمفهوم " القاعدة " هنا أن يكون مفهوما دلاليا ؛ وذلك أن النص لا قاعدة له مالم يتقدم هذه القاعدة من المنطوقات والمفاهيم وأجزاء المعانى التى تربط بينها العلاقات الدلالية المختلفة، حتى تقر على قاعدة النص . ومن ثم، يصبح اشتراط ابن رشيق فى الانتهاء " أن يكون محكما "[٨٦] اشتراطا طبيعيا . شرح ابن رشيق معنى " الانتهاء المحكم " بقوله: " لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتى بعده أحسن منه . وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب

أن يكـون الآخـر قفلا عليه "(٨٧). الابتداء لـه ما بعده، أما الانتهاء فليس بعده شئ . الإحكام فى موضـع الانـتهاء يؤدى بالضرورة إلى توفر خاصية الحبك بين منطوقاته وما قبله . هو إحكام معناه بمـا يكـون نتـيجة لما قبله وتدعيما له ولمقصد النص الكلى فى آن معا ؛ وذلك أن القاعدة لا تكون قـاعدة إلا إذا كـانت مرتـبطة بمـا فوقهـا ارتـباطا دلاليـا بعلاقـة مـا، وهـى غالبا علاقة السبب ـ النتيجة.

وربما صنع المتكلم الانتهاء مراعيا سياق الاتصال الخارجى أشد من مراعاته سياق النص اللغوى الداخلى . من ذلك مثلا معلقة امرئ القيس التى ختمها بوصف السيل وشدة المطر:

كأن السباع فيه غرقى غدية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل(٨٨).

دلالـة النص الكلية لاترشح مثل هذه الخاتمة قاعدة لـه؛ وذلك أنها جزء من معنى من معانى جزء من النص، وهى تفصيل ما قبلها ؛ أى هى معقودة به وحده، وليست قطعا على معنى تؤول إليه سائر الأبيات قبلها .

بناء على ما تقدم، يكون القانون الذى ارتضاه القدماء حكما لجودة الانتهاء هو:

- " أن يكون الانتهاء قاعدة النص "

وذلك على معنى أن يكون أدخل فى مقصده، وأن يكون قطعا طبيعيا ينتهى إليه ما قبله ويدعم هو ما قبله فى آن معا.

(ب) بنية النص من منظور الحبك عند حازم

فـى معـنى مـا يكـون بـين المنطوقات المتوالية أو أجزاء النص الواحـد مـن أشكال للترابط المضمونى، يستخدم حازم (ت ٦٨٤ هـ) مفاهيم عدة ؛ كالتناسب والاقتران والالتئام . تمثل هذه المفاهيم ـ مع طائفة أخرى من الأفكار المتفرقة ـ إضاءات معرفية مهمة فى فهم منظورات حازم إلى بـنية الـنص مـن جهـة الحـبك . يمكـن أن نجمـل تـلك المفـاهيم والأفكـار الأوليـة ـ وفـاق خطـة الدراسة ـ على النحو التالى:

١ـ للأغـراض " أجـناس " أول . مـن ذلك الارتياح والاكتراث وما تركب منهما ؛ نحو إشراب الارتيـاح الاكتراث أو العكس . وتحت هذه الأجناس الأول "أنواع" كالاستغراب والاعتبار، والرضا والغضـب، والـنزاع والنزوع، والخوف والرجاء . وتحت هذه الأنواع " أنواع " كالمدح، والنسيب، والتذكرات، وأنواع المشاجرات، وما جرى مجراها من المقاصد الشعرية(٨٩).

يـنـتهى حـازم من ذلك إلى أن حسن التصرف فى المعانى يوجب على المتكلم أن يعرف " وجوه انتسـاب " بعضـها إلى بعـض . لكـل معـنى من تلك المعانى معنى أو معان تناسبه وتقاربه . ولكل معنى معنى أو معان تضاده وتخالفه . وللمضاد معنى أو معان تناسبه(٩٠).

٢ـ لاقتران المعانى بعضها ببعض وجعل بعضها بازاء بعض أنواع خمسة:

(الأول) اقـتران الـتماثل: وهـو أن تـناظر بـين موقـع المعنى فى هذا الحيز وموقعه فى الحيز الآخر .

(الثانى) اقتران المناسبة: وهو اقتران المعنى بما يناسبه .

(الثالث) المطابقة أو المقابلة:. وذلك باقتران المعنى بمضاده .

(الرابع) المخالفة: وذلك باقتران الشئ بما يناسب مضاده .

(الخامس) تشافع الحقيقة والمجاز: وذلك باقتران الشئ بما يشبهه، وبأن يستعار اسم أحدهما للآخر(٩١).

تقـع أنـواع الاقتران السابقة – ويسميها حازم أيضا باسم "جهات التعلق" – بين معنيين كلاهمـا "عمـدة" فـى الكـلام، كمـا يقـع الاقـتران بين معنيين أحدهما "عمدة" والآخر "فضلة" أو

كالفضلة، من أجل التتميم وتحقيق صحة مفهوم أحدهما ببيان الصحة فى مفهوم الآخر؛ كأن تقول: العفاف فضيلة كما أن الفسوق رذيلة[٩٢].

٣- ينبغى للشاعر - حتى يكمل له القول على الوجه المختار - أن يتمتع بقوى ثلاث:

(الأولى) القوة الحافظة: وذلك أن تكون خيالات الفكر منتظمة، ممتازا بعضها عن بعض. والقوة الحافظة هى التى تزود الشاعر بالخيال الذى يليق بكل غرض يريد أن يقول فيه من نسيب ومديح وغيرهما.

(الثانية) القوة المائزة: وهى القوة التى يميز بها الشاعر بين ما يلائم الموضع والنظم والأسلوب والغرض مما لا يلائم ذلك، وما يصح مما لا يصح.

(الثالثة) القوة الصانعة: وهى القوة التى تتولى العمل فى ضم بعض أجزاء الألفاظ والمعانى والتراكيب إلى بعض والتدرج من بعضها إلى بعض. وعلى الجملة هى القوة التى تتولى جميع ما تلتئم به كليات صناعة الشعر.

إذا جمع الشاعر بين هذه القوى جميعا كان متمتعا بـ "الطبع الجيد" فى تلك الصناعة[٩٣].

٤- يحدد حازم قوى فكرية عشرا تتحقق بها مقاصد النظم وأغراضه. نرى أدنى تلك القوى إلى موضوع دراستنا القوى التالية:

(الأولى) القوة على تصور كليات الشعر، والمقاصد الواقعة فيها، والمعانى الواقعة فى هذه المقاصد؛ وذلك حتى يتوصل الشاعر إلى اختيار ما يجب من القوافى ولبناء فصول القصائد على ما يجب.

(الثانية) القوة على تصور صورة للقصيدة تكون بها أحسن ما يمكن، وكيف يكون إنشاؤها أفضل من جهة وضع بعض المعانى والأبيات والفصول من بعض، بالنظر إلى صدر القصيدة ومنعطفها من نسيب إلى مدح، وبالنظر إلى ما يجعل خاتمتها فى حاجة إلى شئ من ذلك.

(الثالثة) القوة على ملاحظة الوجوه التى بها يقع التناسب بين المعانى وإيقاع تلك النسب بينها.

(الرابعة) القوة على تحسين وصل بعض الفصول ببعض، ووصل الأبيات بعضها ببعض، وإلصاق بعض الكلام ببعض على الوجوه التى لا تنبو عنها النفس.

يكشف تصنيف حازم المقاصد الشعرية إلى أجناس عليا وفروع سعة أفقه التصورى. ولا شك أن المعرفة النظرية الأولية بتلك الأجناس والفروع سوف تعد أداة لاختبار مدى ضبط العلاقات بين المعانى والأغراض عند ممارسة القول الشعرى. وسوف تترك هذه المعرفة آثارها فى بناء النص وتنظيم العلاقات والنسب بين أجزائه. وليست جهات التعليق أو علاقات الاقتران عنده إلا علاقات حبك بين المنطوقات، تصلح للخروج عن ذلك إلى أن تصير ضروبا لعلاقات حبك فصول النص الشعرى الكامل، لا سيما فى النصوص الشعرية غير المركبة والتى تبنى معنويا على أنواع الأجناس الأول عنده؛ كالرضا والغضب، والخوف والرجاء ونحوها.

أما كلام حازم عن القوى الثلاث التى يكمل بها القول للشاعر (وبصفة أعم كل متكلم)، فهو أدنى شئ إلى ثلاثية الكفاءة فى النظرية اللغوية المعاصرة: القوة الحافظة عنده تضاهى الكفاءة اللغوية التى تعنى ما يعرفه متكلم اللغة الأصلى عن لغته وما يختزنه فى عقله منها وقدرته على استعمالها. والقوة المائزة عنده تضاهى الكفاءة التداولية التى تعنى قدرة صانع النص على ربط لغته بالمواقف والسياقات، وقدرته على جعل منطوقاته ممتثلة لمقاصده الكاملة؛ أى جعل منطوقاته مناسبة وظيفيا وموقفيا لسياق الاتصال. والقوة الصانعة عنده تضاهى الكفاءة الموضوعية التى تعنى قدرة صانع النص على تعيين ما يريد أن يصل إليه عند متلقيه، وقدرته على تنسيق أجزاء النص

والربط بينها[٩٤]. وليست القوى الفكرية الأربع التى اصطفيناها من جملة القوى الفكرية العشر عنده إلا تبيانا وتفصيلا للقوة الصانعة أو الكفاءة الموضوعية.

سبق حازما إلى الكلام عن آلات الكتابة والنظم آخرون[٩٥]، ولكن حازما وضع يده على تصنيف جامع لما تفرق عند سابقيه مميزا بالوصف وتعيين الوظيفة بين قوة وأخرى من قوى القول، حتى يصير تصنيفه الثلاثى هذا من الأسس الإجرائية النظرية التى نرى لها صلاحية لأن تتخذ فى وصف إنتاج النصوص وتخطيطها.

ومهما يكن من أمر، فقد استفرغ حازم جهده فى منهاجه لتحليل بنية النص وشروط الإبداع فى صناعته. وفيما يلى التفصيل:

١- قوانين الابتداء والتخلص والانتهاء:

أ/١- الابتداء

ينبغى الإشارة إلى أن ما أسماه حازم بـ "شروط الإبداع فى المبادئ" لا يكاد يزيد عما اشترطه سابقوه، سواء ما يرجع إلى اللفظ أو المعنى أو النظم أو الأسلوب[٩٦]. على أن الذى ينبغى لنا ملاحظته فى مبحث الابتداء أن الشرط المقامى عنده قد اتخذ هيئة المناسبة بين اللغة المستخدمة ومقصد المتكلم، ولم يعرض لملابسات الخطاب وأحوال المخاطبين. يقول حازم: "ملاك الأمر فى جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسبا لمقصد المتكلم من جميع جهاته: إذا كان مقصده الفخر، كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والنظم والمعانى والأسلوب ما يكون فيه بهاء وتفخيم. وإذا كان المقصد النسيب، كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون فيه رقة وعذوبة من جميع ذلك، وكذلك سائر المقاصد"[٩٧].

سبق آخرون حازما فى اشتراط ذلك، وفى جعل المناسبة بين المقصد واللغة أول ما يحتاجه الشاعر من معرفة مقامات الكلام. أضرب مثالا على ذلك ابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ). يقول ابن رشيق: "فأول ما يحتاج إليه الشاعر حسن التأتى والسياسة، وعلم مقاصد القول؛ فإن نسب ذل وخضع، وإن مدح أطرى وأسمع، وإن هجا أخل وأوجع، وإن فخر خب ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حن ورجع، ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنا من كان؛ ليدخل إليه من بابه، ويدخله فى ثيابه. فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذى به تفاوت الناس، وبه تفاضلوا"[٩٨].

أما القانون الذى يحكم الابتداء عند حازم، فهو أن "يجعل (يعنى الشاعر) مبدأ كلامه دالا على مقصده، ويفتتح القول بما هو عمدة فى غرضه"[٩٩]. ولا يختلف الجزء الأول من قانونه عما نص عليه سابقوه. أما الجزء الثانى، ففيه تنويه بافتتاح القول بما هو أدخل فى الغرض منه.

إضافة حازم الحقيقية فى تحليل المبادئ فى عنايته بمعيار المناسبة، وفى بنائه ترتيب المبادئ على ما أسماه بـ " التناصر":

١- معيار المناسبة: يقول حازم: "وإذا لم يكن البيت الثانى مناسبا للأول فى حسنه، غض ذلك من بهاء المبدأ وحسن الطليعة، وخصوصا إذا كان فيه قبح من جهة لفظ أو معنى أو نظم أو أسلوب، وذلك نحو قول أبى الطيب المتنبى:

أتراها لكثرة العشاق   تحسب الدمع خلقة فى المآقى
كيف ترثى التى رأت كل جفن   رآها غير جفنها غير راق[١٠٠]

الأحرى أن نرى المناسبة فى هذا السياق مبدأ تنظيميا؛ وذلك أنه ينظم بنية النص اللفظية والمعنوية؛ أى أن المناسبة هنا تعنى الربط الشكلى والمضمونى جميعا.

٢- فكرة التناصر: اتخذ حازم فكرة التناصر أساساً بنى عليه ترتيبه المبادئ إلى رتب ثلاث:

- فأحسن المبادئ ما تناصر فيه حسن المصراعين وحسن البيت الثانى (ويلحظ حازم أن هذه الرتبة عند "المحدثين" -بمفهوم العصر - أكثر من "العرب المتقدمين" الذين لم يكن لهم بتشفيع البيت الأول بالثانى كبير عناية).

- والرتبة الثانية: أن يتناصر الحسن فى المصراعين دون البيت الثانى.

- والرتبة الثالثة: أن يكون المصراع الأول كامل الحسن، ولا يكون المصراع الثانى منافراً له، وإن لم يكن مثله فى الحسن (ومثل هذا - فيما لاحظه - يوجد كثيرا)[١٠١].

تعكس تراتبية المبادئ على هذا النحو المنطقى أثر التناصر فى جودة الكلام. وليس التناصر - فى جوهره - إلا مظهرا من مظاهر الارتباط المضمونى والشكلى بين وحدات الفصل الواحد، لا سيما فى طليعته. ويمكن لمعيار المناسبة وفكرة التناصر معا أن يمثلا منظورا لغوياً إلى بنية النص بوصفه كلا دلاليا متفاعلاً متبادل التأثير بالإيجاب والسلب. إذا كان حسن الجزء معتدا به بحسن غيره، فإن ذلك يعنى أن الحسن فى المبدأ ليس صفة قبلية، ولكنها صفة استعمال يكتسبها الجزء فى محيط الكل. وسيعنى هذا بالضرورة أن النص ليس مجموع أجزائه، ولكنه حصيلة التفاعلات بين تلك الأجزاء.

ب/١ التخلص

التخلص عند حازم خروج فى الكلام من غرض إلى غرض على سبيل التدرج[١٠٢]. إذا كان الخروج من غير تدرج، ولكن بانعطاف طارئ على جهة من الالتفات سمى عنده باسم "الاستطراد"[١٠٣].

التدرج إذن هو العمود الفقرى للتخلص عند حازم. مقياس التدرج عند حازم فى قوله: "أن يكون الكلام غير منفصل بعضه من بعض، وأن يحتال فيما يصل بين حاشيتى الكلام ويجمع بين طرفى القول حتى يلتقى طرفا المدح والنسيب أو غيرهما من الأغراض المتباينة التقاء محكما"[١٠٤]. وفى تفسير حازم لوظيفة التخلص - فى ضوءفهمه هو على الأقل - ما يجعل للتخلص - بما يحققه من التقاء محكم بين الأغراض - أثرا إيجابيا مباشرا فى تلقى الكلام: " فلا يختل نسق الكلام ولا يظهر التباين فى أجزاء النظام. فإن النفوس والمسامع إذا كانت متدربة من فن من الكلام الى فن مشابه له، ومنتقلة من معنى إلى معنى مناسب لـه، ثم انتقل بها من فن إلى فن مباين له من غير جامع بينهما وملائم بين طرفيهما، وجدت الأنفس فى طباعها نفورا من ذلك ونبت عنه. وكذلك النفوس والأسماع إذا قرعها المديح بعد النسيب دفعة من غير توطئة لذلك، فإنها تستصعبه ولا تستسهله، وتجد نبوة ما فى انتقالها إليه من غير احتيال وتلطف فيما يجمع بين حاشيتى الكلام ويصل بين طرفيه الوصل الذى يوجد للكلام به استواء والتئام "[١٠٥].

ليس النسيب والمديح فى الكلام عن القصيدة المركبة التى توجب فى الأساس احتيالا وتلطفا فى صناعة التخلص، لينا إلا نوعين أو اسمين على غرضين من أغراض الاتصال الأدبى. المهم هنا ما يكشف عنه نظام " التدرج " فى كل غرض عند حازم، فيما يسميه " كيفية العمل " من وعى بضرورة الارتباط المعنوى والتسلسل المنطقى بين عناصر ذلك الغرض. الأحسن فى النسيب عند حازم أن يجرى التدرج هكذا :

- البدء بما يرجع إلى المحب ،

- ثم بما يرجع إلى المحب والمحبوب معا،

- ثم إرداف ما يرجع إليهما معا مما يشجو وقوعه بذكر ماهو راجع إليهما مما يسر وقوعه (لما فى ذلك من المقابلة وتدارك النفوس من إيلامها بالشاجى الصرف بعرض المعانى)،

- ثم يحتال فى عطف أعنة الكلام إلى المديح ؛ فهذا هو الموضع التام المناسب[١٠٦].

أما المديح المتخلص إليه من نسيب، فالوجه فى ترتيبه عند حازم:

- أن يصدر بتعديد فضائل الممدوح ،
- وأن يتلى ذلك بتعديد مواطن بأسه وكرمه، وذكر أيامه فى أعدائه،

- وإذا كان للممدوح سلف حسن تشفيع ذكر مآثره بذكر مآثرهم ،
- ثم يختتم بالتيمن للممدوح والدعاء له بالسعادة ودوام النعمة والظهور على الأعداء وما "ناسب" ذلك(١٠٧).

أقول مرة أخرى لايعنينا هنا المديح أو النسيب غرضا من أغراض الشعر، إنما الذى يعنينا ما ارتبط بهما من بيان " كيفية العمل " . توفر أكثر شروط التخلص عند حازم فرصة للقول بأن مبادئ الائتلاف المعنوى، والانتظام، واتصال الكلام، كانت الخلفية النظرية التى انطلقت منها تلك الشروط . أهم تلك الشروط ما يلى:

- التحرز من انقطاع الكلام .
- التحرز من الإخلال واضطراب الكلام .
- التحرز من النقلة بغير تلطف (إذ يجب التلطف فيما يوقع الكلام أحسن مواقعه ويجريه على أقوم مجاريه) .
- أن يجهد الشاعر نفسه فى تحسين البيت التالى لبيت التخلص(١٠٨).

الإضافة الحازمية الأهم فى بحث التخلص هي ما يمثله الشرط الأخير: أن يجهد الشاعر نفسه فى تحسين البيت التالى لبيت التخلص ؛ فإنه أول الأبيات التى يظهر فيها الإجادة أو الإساءة، وهو- كما يقول حازم- أول منقلة من مناقل الفكر فيما تخلصت إليه(١٠٩)، وينبغى لنا أن نضيف إلى جدة ذلك الشرط عند حازم، اشتراطه فى بيت التخلص الشرطين التاليين :

- التحرز فى بيت التخلص من الحشو.
- والتحرز فى بيت التخلص من الاضطرار إلى الكناية(١١٠).

الحشو عامل لفظى . والكناية عامل معنوى . الحشو والكناية يرتبطان بتدفق الخطاب . وتدفق الخطاب فى موضع التخلص ينبغى له أن يكون مطلبا ملحا . الحشو والكناية- على نحو ما يجب أن نفهم من سياق كلام حازم- يضعفان قوة إخلاص التخلص لوظيفة الربط المضمونى المنطقى فى موضع تلح فيه الحاجة إلى نقل الكلام- فى تدرج- من محور خطابى إلى آخر .إنهما يضعفان قوة إخلاص التخلص لتلك الوظيفة ؛ لأنهما يقيدان حركته اللفظية والمعنوية: تضعف السلاسة وتشاب مباشرة المعنى بلازم المعنى .

ومهما يكن من أمر، فإن قانون التخلص الدلالى عند حازم ينبغى له أن يكون هكذا :

- ينبغى للتخلص أن يكون على سبيل التدرج وأن يؤدى إلى الالتقاء المحكم بين الأغراض .

جـ/١ الانتهاء

عرض حازم شروطه فى الانتهاء أو الخاتمة تحريا وتحرزا وتحفظا على النحو التالى :

١- تحرى أن يكون ما وقع فيها من الكلام كأحسن ما اندرج فى حشو القصيدة.

٢- أن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفر للنفس عما قصدت إمالتها إليه، أو مميل لها إلى ما قصدت تنفرها عنه .

٣- أن يتحفظ فى أول البيت الواقع مقطعا للقصيدة من كل ما يكره ولو ظاهره وما توهمه دلالة العبارة أولا، وإن رفعت الإيهام آخرا ودلت على معنى حسن . ومن هذا قول المتنبى :

فلا بلغت بها إلا إلى ظفر   ولا وصلت بها إلا إلى أمل(١١١).

الشرط الثانى عند حازم شرط لفظى معنوى . وما يرتبط بالمعنى فيه لايخرج عما اشترطه أبو هلال وابن رشيق وأمثالهما: ينبغى للخاتمة أن ترتبط بالمقصد من الكلام . أما الشرطان الأول والثالث فهما لفظيان نظميان . وما ضرب به حازم مثلا على النظم القبيح هو نفسه الذى سبقه إليه ابن رشيق، عنيت بيت أبى الطيب.

كان ابن رشيق قد علق على هذا البيت قائلا: " فإن هذا شبيه ماذكر من بغيض: كان يصابح الأمير فيقول: لاصبح الله الأمير بعافية، ويسكت، ثم يقول: إلا رماه بأكثر منها، ويماسيه فيقول:

لامسى الله الأمير بنعمة، ويسكت سكتة ثم يقول: إلا وصبحه بأتم منها، أو نحو هذا . فلا يدعو له حتى يدعو عليه. ومثل هذا قبيح، لاسيما عن مثل أبى الطيب"[١١٢].

السكتة على ما قبل أداة الاستثناء تقدم مثالا على النظم القبيح ؛ لأنه موهم، يضطرب معه الخطاب فى موضع الخاتمة، وهو موضع ينبغى له أن يحوز على عناية المتكلم؛ لأنه- كما يقول حازم- منقطع الكلام وخاتمته[١١٣]. المهم هنا- على أى حال- التفات حازم إلى تبادل الخاتمة مع ما قبلها فعل التأثير فى نفس المتلقى سلبا وإيجابا ؛ " فالإساءة فيه (يعنى موضع الخاتمة) معفية على كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليه فى النفس . ولا شئ أقبح من كدر بعد صفو وترميد بعد إنضاج "[١١٤].

ومهما يكن من أمر، فإن قانون الخاتمة الدلالى عند حازم ينبغى له أن يكون هكذا:

- ينبغى أن ترتبط الخاتمة بما قصد إليه المتكلم فى النص، وألا يكون تأثيرها فيما قبلها من حيث المعنى تأثيرا سلبيا .

وهو قانون لايخرج- كما نرى- عما وضعه سابقوه .

٢- المبادئ الدلالية لحبك الفصول

الإضافة الحقيقية فى دراسة الحبك أو التناسب المعنوى بين وحدات النص عند حازم مستودعها المعلم الأول من المنهج الثالث من (المبانى) وهو عن " طرق العلم بأحكام مبانى الفصول وتحسين هيآتها ووصل بعضها ببعض"[١١٥]. الفصول عنده هى ما نتعارفه بالمقاطع التى يستقل كل مقطع منها فى القصيدة العربية المركبة بغرض . تتوزع معطيات هذا العلم- فيما نرى- على مفاهيم ثلاثة :

- معطيات تختص بمفهوم السبك .
- معطيات تختص بمفهوم الحبك .
- معطيات ترتبط بأحدهما أو كليهما وبمفهوم بنية النص وتنسيقه فى آن معا .

مقتضى الحال أن نقتصر هنا على ما يتصل من آرائه بمفهوم الحبك على مستوى الفصول.

السؤال الآن: ما الأسس الدلالية والمضمونية التى يبنى عليها الحبك بين فصل وآخر ؟

أ / ٢ ـ قوانين الوصل بين الفصول

ينبغى أن نشير أولا إلى أن حازما قد جعل الكلام فيما يرجع إلى ذوات الفصول وإلى ما يجب فى وضعها وترتيب بعضه من بعض قائما على أربعة قوانين:

(القانون الأول) فى استجادة مواد الفصول وانتقاء جوهرها .

(القانون الثانى) فى ترتيب الفصول والموالاة بين بعضها وبعض .

(القانون الثالث) فى ترتيب ما يقع فى الفصول .

(القانون الرابع) فيما يجب أن يقدم فى الفصول وما يجب أن يؤخر فيها وتختتم به[١١٦].

لكل قانون من هذه القوانين الأربعة عند حازم شروط تحقيق مختلفة . تتوزع هذه القوانين وشروط تحقيقها على ما يمكن تسميته :

١ـ شروط الحبك الكلى: ويقصد بها ما يحقق الارتباط المضمونى بين فصول القصيدة . وتقع هذه الشروط فى القانون الأول والثانى .

٢ـ شروط الحبك الجزئى: ويقصد بها ما يحقق الارتباط المضمونى بين أبيات الفصل الواحد. وتقع هذه الشروط فى القانون الثالث .

مما يحقق الحبك الكلى من شروط القانون الأول عند حازم " تناسب المفهومات بين الفصول"[١١٧]. ومما يحققه من شروط القانون الثانى أن يقدم من الفصول ما للنفس به عناية على حسب الغرض المقصود بالكلام، وأن يتلى الفصل المقدم بالأهم فالأهم، حتى تتصور التفاتة ونسبة بين فصلين تدعو إلى تقديم غير الأهم على الأهم (وبالتالى إلى ترك القانون الأصلى فى الترتيب)[١١٨].

ومن شروط حازم في القانون الأول "حسن الاطراد بين الفصول"[١١٩]. وقد جاء حازم بهذا الشرط على الإجمال . ومما يعنيه حسن الاطراد بالضرورة التوالى المحكم للمفاهيم والأغراض الذى يصل الفصول بعضها ببعض فى القصيدة الواحدة .

واستواء النسج من شروطه فى القانون الأول أيضاً . وهو متعلق بالعامل التركيبى ؛ أى بالبنية اللفظية. ولكنه ينعكس بالضرورة على البنية المعنوية . يجب أن تكون الفصول تبعا لهذا القانون " غير متخاذلة النسج، غير متميز بعضها عن بعض التمييز الذى يجعل كل بيت كأنه منحاز بنفسه لايشمله وغيره من الأبيات بنية لفظية أو معنوية تنزل منزلة الصدر من العجز أو العجز من الصدر. والقصائد التى نسجها على هذا مما تستطاب"[١٢٠].

أما الشروط التى تحكم تحقيق الحبك الجزئى، فقد اشتمل عليها القانون الثالث ؛ وهو فى تأليف بعض بيوت الفصل إلى بعض . وهذه الشروط هى :

١- يجب أن يبدأ من أبيات الفصل بالمعنى المناسب لما قبله[١٢١].
٢- فضلا عن وجوب صياغة رأس الفصل الصياغة التى تدل على أنه مبدأ فصل، فالأحسن أن يتصل به معنى يحسن موقعه من النفوس بالنسبة إلى الغرض ؛ كالتعجب والتمنى والدعاء وتعديد العهود السوالف الخ .
٣- يشترط أن يكون لمعنى البيت - مع كون أوله مبدأ كلام ومصدرا بكلمة لها معنى ابتدائى - أن يكون له علاقة بما قبله ونسبة إليه " .
٤- " يجب أن يردف البيت الأول من الفصل بما يكون لائقا به من باقى معانى الفصل، مثل :
(أ) أن يكون مقابلا له على جهة من جهات التقابل ،
(ب) أو أن يكون بعضه مقابلا لبعض ،
(ج) أو أن يكون مقتضى له، مثل :
- أن يكون مسببا عنه،
- أو أن يكون تفسيرا له ،
- أو أن يكون بعضه محاكيا بعض ما فى الآخر .
- أو غير ذلك من الوجوه التى تقتضى ذكر شئ بعد شئ آخر .
وكذلك الحكم فيما يتلى به الثانى والثالث إلى آخر الفصل[١٢٢].

وفى نهاية تلك الشروط يورد حازم هذه الملحوظة المهمة: " وربما ختم الفصل بطرف من أغراض الفصل الذى يليه او إشارة إلى بعض معانيه "[١٢٣].

باستثناء الإشارة فى الشرط الثانى إلى وجوب صياغة رأس الفصل الصياغة التى تليق بموقعه، تبدو جميع الشروط فى هذا القانون مختصة بالحبك الجزئى أو الداخلى بين أبيات الفصل الواحد . ولكنها لم تغفل - على رغم ذلك - وجوب المناسبة المعنوية بين رأس الفصل وما يسبقه أو بين خاتمة الفصل ورأس الفصل الذى يليه .

ولعل وضع حازم يده على بعض وجوه التعلق بين البيت والآخر من الفصل الواحد بداية جدولة العلاقات الدلالية التى سبق فيها المحدثين، مثل نايدا . يحتفظ نايدا بحق الجدولة المتكاملة للعلاقات الدلالية بين المنطوقات، ويحتفظ حازم بحق السبق إلى كثير من تلك العلاقات . ولنا أن نقابل ما عند حازم بما يشاكله عند نايدا على النحو التالى:

نايدا	حازم
- العلاقة التقابلية (علاقة ثنائية)	- علاقة المقابلة :
	- الكلية
	- البعضية
- السبب - النتيجة (علاقة منطقية)	- مسبب عنه
- الإجمال - التفصيل (علاقة تبعية)	- تفسير له

ـ الكيفية (علاقة الوصف) ـ بعضه يحاكى بعض ما فى الآخر

ضم القانونان الأول والثانى شروط ما أسميناه بالحبك الكلى، كما ضم القانون الثالث شروط الحبك الجزئى . أما القانون الرابع، فقد جعله حازم فى وصل بعض الفصول ببعض . ونرى أن الوصل ـ فى هذا الموضع ـ ينبغى له أن يتسع للسبك والحبك معا . ويعنى هذا أن القانون الرابع إنما يتناول النص المسبوك المحبوك فى الآن نفسه. لم يبن هذا القانون ـ مثل غيره ـ على شروط تحقيقه، إنما بنى على أنواع الفصول من حيث الاتصال والانفصال بين العبارة والغرض. يقول حازم: " فأما القانون الرابع فى وصل بعض الفصول ببعض، فالتأليف فى ذلك على أربعة أضرب:

١ـ ضرب متصل العبارة والغرض .
٢ـ وضرب متصل العبارة دون الغرض .
٣ـ وضرب متصل الغرض دون العبارة .
٤ـ وضرب منفصل الغرض والعبارة "[١٢٤]

حد حازم الضرب الأول على النحو التالى: " فأما المتصل العبارة والغرض، فهو الذى يكون فيه لآخر الفصل بأول الفصل الذى يتلوه علقة من جهة الغرض وارتباط من جهة العبارة، بأن يكون بعض الألفاظ التى فى أحد الفصلين يطلب بعض الألفاظ التى فى الآخر من جهة الإسناد والربط "[١٢٥].

على أساس الاتصال والانفصال بين العبارة والغرض تجرى سائر الضروب. إذا كان الاتصال من جهة العبارة لا الغرض كان الضرب الثانى . ويكون الفصل متصلا بغيره فى الغرض دون العبارة إذا كان أوله رأس كلام، ويكون لذلك الكلام " علقة " بما قبله من جهة المعنى . هذا هو الضرب الثالث . أما الضرب الرابع والأخير، فهو الذى لاتوصل فيه عبارة بعبارة ولا غرض بغرض مناسب له، بل يهجم على الفصل هجوما من غير إشعار به مما قبله ولا مناسبة بين أحدهما والآخر[١٢٦].

الضروب الأربعة السابقة هى الإجابة عن سؤال يمكن أن يطرح على النحو التالى: كيف تبدو صور العلاقات بين الفصول من حيث اتصال العبارة والغرض؟

وينبغى الإشارة هنا إلى أن حازما قد وصف الضرب الثانى بأنه " منحط عن غيره "[١٢٧]. ووصف الضرب الرابع بأنه "متشتت من كل وجه "[١٢٨]. ولكنه يرى الضرب الثالث، وهو ما اتصلت فيه الفصول بعضها ببعض فى الغرض دون العبارة، يراه أفضل الضروب الأربعة . يقول حازم: " وهذا الضرب (يعنى الثالث) إذا نيط برأس الفصل فيه معنى تعجيبى أو دعائى أو غير ذلك مما أشرنا إليه هو أفضل الضروب الأربعة ؛ لكون النفوس تنبسط ويتجدد نشاطها بإشعارها الخروج من شئ إلى شئ، واستئناف كلام جديد لها مع ما يشفع به إليها فى قبول الكلام من نياطة ما ذكرناه من تعجيب أو دعاء أو غير ذلك مما له بالمعنى علقة بالكلام وتصديره به . وهذا الضرب ـ على كل حال ـ أفضل الضروب الأربعة "[١٢٩].

يعكس تنظير حازم لضروب الاتصال بين فصول القصيدة ما يستحسنه الذوق العربى فى بنية الخطاب: تعلق الفصول فيما بينها من جهة الغرض وارتباط بعضها ببعض من جهة العبارة؛ أى ارتباط الألفاظ بعضها ببعض من جهة الإسناد والربط . لقد نظر حازم ـ فيما يبدو لنا ـ إلى طراز القصيدة المركبة ـ على تقديره قدر الاتصال بين الفصول فى الغرض عن طريق الخروج ـ عندما جعل الضرب الثالث أفضل الضروب . بعبارة أخرى نقول: سوف تجد القصيدة المركبة محلا لها من الضرب الثالث، على أساس فهم حازم ومن قبله لدور التخلص أو الخروج، من الربط بين الفصول لفظا ومعنى .

ب/٢ تنسيق المعانى بين الفصول: المعانى الجزئية والمعانى الكلية

ويرتبط بالحبك بين المفاهيم والقضايا على مستوى الفصل الواحد، الكيفية التى تنسق بها المعانى بين أبيات الفصل . جعل حازم المعانى صنفين:

١- المعانى الجزئية: وهى عنده ما كانت مفهوماتها " شخصية "[١٣٠].

٢- المعانى الكلية: وهى عنده ما كانت مفهوماتها " جنسية أو نوعية "[١٣١].

لم يمثل حازم لأى من هذين النوعين عنده . ينبغى لمعنى الحب أو الوفاء أن يكون معنى كليا، من حيث إن مفهومه جنسى أو نوعى، فإذا ما عرض شاعر لتجربة شخصية فى أحدهما فى علاقته بفلان أو فلانة، وكيف كانت تلك التجربة، وما كان يريده لها، ونحو ذلك، كان التحول إلى المعنى الجزئى .

هذان هما نوعا المعانى عند حازم . فأما القصد إليها فى القصائد فثلاثة أشكال:

١- القصائد التى يكون اعتماد الشاعر فى فصولها على أن يضمنها معانى جزئية .

٢- ما يقصد الشاعر فى فصولها أن تضمن المعانى الكلية.

٣- ما يقصد الشاعر فى فصولها أن تكون المعانى المضمنة إياها مؤتلفة بين الجزئية والكلية . وهذا هو المذهب الذى يجب اعتماده عند حازم ؛ وذلك لحسن موقع الكلام به من النفس[١٣٢].

ما يتصل بالحبك المعنوى هنا - على معنى كيفية توزيع المعانى بين الفصول وتسلسلها إظهارا لطبيعة التفاعل فيما بينها - هو إشارة حازم إلى أنه يحسن أن تصدر الفصول بالمعانى الجزئية وأن تردف بالمعانى الكلية على سبيل التمثل بالأمر العام على الأمر الخاص، أو على سبيل الاستدلال على الشئ بما هو أعم منه[١٣٣].

ترتيب المعانى فى الفصل علىالنحو السابق يبدو مقيسا على نماذج المجيدين من الشعراء مثل المتنبى . كان أبو الطيب النموذج المحتذى فيما اعتمده حازم أو استحسنه، لا فى تصدير الفصول بالمعانى الجزئية وإردافها بالمعانى الكلية فحسب، بل فى تصدير الفصول بالأبيات المخيلة وجعل ختامها ببيت إقناعى يعضد به ما قدم من التخييل ويجم النفوس لاستقبال الأبيات المخيلة فى الفصل الثانى . يرى حازم أن كلام أبى الطيب كان لـه بذلك " أحسن موقع فى النفوس"[١٣٤]. ويرى أنه " يجب أن يعتمد مذهب أبى الطيب فى ذلك، فإنه حسن "[١٣٥].

ومهما يكن من أمر، فإن الذى نلاحظه فى تصدير الفصل بالمعانى الجزئية وختمه بالمعانى الكلية هو مجاراة ذلك للغالب فى العلاقات الدلالية المنطقية بين المنطوقات ؛ إذ يغلب أن تبدو العلاقة من هذا النوع فى هيئات نحو:

- السبب / النتيجة .
- أو الوسيلة / النتيجة .
- أو الشرط / الجواب، ونحوها .

(ج) رءوس الفصول: التسويم والتحجيل

لا يخرج رأى حازم فى التقسيم النصى إلى فصول عن رأى سابقيه . يرى حازم ان العرب " اعتمدوا فى القصائد أن يقسموا الكلام فيها إلى فصول ينحى بكل فصل بها منحى من المقاصد، ليكون للنفس فى قسمة الكلام إلى تلك الفصول والميل بالأقاويل فيها إلى جهات شتى من المقاصد وأنحاء شتى من المآخذ استراحة واستنجاد نشاط بانتقالها من بعض الفصول إلى بعض وترامى الكلام بها إلى أنحاء مختلفة من المقاصد "[١٣٦].

ولا يرى حازم فى تعدد الفصول والموضوعات مايشوش الاتصال ؛ بل يرى أنه أشد موافقة للنفوس الصحيحة الأذواق ؛ وذلك لولع النفوس بالافتنان فى أنحاء الكلام وأنواع القصائد[١٣٧].

فى هذا الإطار يقع التسويم والتحجيل . هذان الاصطلاحان من وضع حازم. التسويم يعنى العناية برءوس الفصول العناية التى توقظ نشاط النفس لتلقى ما يتبعها ويتصل بها[١٣٨]. أطلق حازم على هذا الموضع التسويم ؛ لأن العناية هنا ترتبط بفواتح الفصول، فتجعل لها بهاء وشهرة وازديادنا حتى كأنها بذلك ذوات غرر[١٣٩].

أما " التحجيل " عنده فيعنى " تحلية أعقاب الفصول بالأبيات الحكمية والاستدلالية... ليكون اقتران صنعة رأس الفصل وصنعة عجزه نحوا من اقتران الغرة بالتحجيل فى الفرس "[١٤٠].

يعنينا من " التسويم " أمران مهمان:

(أولهما) التفات حازم إلى العلاقة بين توفر خاصية الحبك لوحدات الفصل وبين تأثيرها فى النفس وبلوغ المقصد ؛ يقول حازم: " وإذا اتجه أن يكون الانتقال من بعض صدور الفصول إلى بعض على النحو الذى يوجد التابع فيه مؤكدا بمعني المتبوع ومنتسبا إليه من جهة ما يجتمعان فى غرض ومحركا للنفس إلى النحو الذى حركها الأول أو إلى ما يناسب ذلك، كان ذلك أشد تأثيرا فى النفوس وأعون ما يراد من تحسين موقع الكلام منها "[١٤١].

و(الآخر) التفات حازم إلى علاقة المعنى فى خاتمة الفصل (بيت التحجيل) بجملة معانى الفصل أو بعضها، فضلا عن فطنته إلى الوظائف الخطابية لهذه الخاتمة فى علاقتها بما قبلها ؛ كالتمثيل والاستدلال اللذين غرضهما التصديق أو الإقناع قصد إعطاء حكم كلي فى بعض ما يتعلق بـ " الأغراض الإنسانية " من أمور قصد إليها الفصل . يقول حازم: " ولا يخلو المعنى الذى يقصد تحلية الفصل به وتحجيله من أن يكون متراميا إلى ما ترامت إليه جملة معانى الفصل إن كان مغزاها واحدا، أو يكون متراميا إلى ما ترامى إليه بعضها؛ فيورد على جهة الاستدلال على ماقبله أو على جهة التمثيل، ويكون منحوا به منحى التصديق أو الإقناع، مقصودا به إعطاء حكم كلى فى بعض ما تكون عليه مجارى الأمور التى للأغراض الإنسانية علقة بها مما تصرفت إليه مقاصد الفصل، ونحى بها نحوه: فيكون فى ورود البيت الأخير الذى يتضمن حكما أو استدلالا على حكم إثر المعانى التى لأجلها بين ذلك الحكم أو الاستدلال عليه، إنجاد للمعانى الأول وإعانة لها على مايراد من تأثر النفوس لمقتضاها "[١٤٢].

خلاصة القول أن المبادئ والتخلصات والخواتيم كانت من مجالات النظر فى بنية النص من منظور الحبك عند حازم . وقد رأينا لـه إسهامات خاصة، لاسيما فى المبادئ والتخلصات . فى تحليل المبادئ أبرز حازم فكرتى التناسب والتناصر بين المبدأ وما يليه . وعلى أساس فكرة التناصر بنى ترتيبه المبادئ إلى رتبها الثلاث على نحو ما رأينا. وفى تحليل التخلصات نبه حازم إلى وجوب العناية بالبيت التالى للتخلص، فضلا عن اشتراطه خلو بيت التخلص مما يعوق حركته اللفظية والمعنوية من حشو أو كناية.

ولكن الرقعة الحقيقية التى أضافها حازم إلى مبحث الحبك أو التناسب فى التراث العربى، كانت مع تجاوزه مواضع البداية والتخلص والنهاية وعلاقاتها بسائر أجزاء النص، إلى بحث خاصية الحبك من خلال القوانين وشروط القوانين التى وضعها للوصل بين فصل و آخر من فصول النص الشعرى أو التى وضعها للوصل بين أبيات الفصل الواحد منها، أو استجادته - فى ترتيب المعانى فى كل فصل - البدء بالمعانى الجزئية ثم المعانى الكلية، أو تنبيهه إلى وجوب العناية بفواتح الفصول وأعقابها - فيما أسماه بالتسويم والتحجيل - من جهة المعنى والوظيفة الخطابية .

أما المبادئ الدلالية الجوهرية التى بنيت عليها قوانين المبادئ والتخلصات والخواتيم من ناحية، أو التى بنيت عليها قوانين مبانى الفصول وهيآتها وكيفيات وصل بعضها ببعض والوصل بين أبيات الفصل الواحد منها من ناحية أخرى، فيمكن أن نوجزها فى: انتظام المعانى، واتصال الكلام، وتناسب الجزء مع الكل فى المفهوم، والتدرج: رأينا مناسبة الابتداء لما بعده ومناسبة ما بعده لـه . وكذلك الحال مع التخلص: أن يناسب ما قبله ويربطه على سبيل التدرج بما بعده .

ولابد للخاتمة أيضا من أن تناسب ما قبلها وأن ترتبط بالمقصد من الكلام . وفى مبانى الفصول لابد من تناسب المفهومات فيما بينها، وأن يكون تقديم الأهم من الفصول فالأهم على حسب الغرض المقصود من الكلام، وأن يتعلق معنى أول الفصل بالفصل الذى قبله . وقد رأينا آنفا أن أفضل ضروب الاتصال بين الفصول عند حازم، ما كان الاتصال فيه بين الفصول فى الغرض دون العبارة. ولعل ذلك يرجع إلى أنه الضرب الذى يجمع بين الترابط المعنوى والتجدد الأسلوبى . وفى التأليف بين أبيات الفصل الواحد، أوجب حازم المناسبة بين البيت الأول من الفصل (بيت التسويم) وما قبله فى المعنى، وأن يردف بيت التسويم ببيت آخر له به علاقة دلالية ما ؛ كالتقابل أو الاقتضاء أو نحوهما، وأن يناسب توزيع المعانى بالفصل، من البدء بالمعانى الجزئية ثم المعانى الكلية، الغالب فى العلاقات الدلالية المنطقية، وأن يرتبط المعنى فى بيت التحجيل بجملة معانى الفصل أوبعضها على الأقل .

٤ ـ التناسب بين النصوص

يتجاوز التناسب هنا ما بين المنطوقات وأجزاء النص الواحد إلى التناسب بين طائفة من النصوص فى مدونة كبرى . التناسب بين النصوص يمثله عمل علمى من طراز عبقرى، هو كتاب (تناسق الدرر فى تناسب السور) للإمام جلال الدين السيوطى (ت ٩١١ هـ) . هذا الكتاب هو النوع الأول من الأنواع الثلاثة عشر التى احتوى عليها كتاب له يحمل اسم (أسرار التنزيل) . ولكن لم يصل إلينا من الأسرار إلا التناسق . فرغ السيوطى من كتابه (تناسق الدرر) فى عام ٨٨٣ هـ . وتكشف قراءة عجلى للمحتوى العام لكتابه الأسرار الذى صدر به كتاب التناسق عن وقوع أكثر من نصف أنواعه فى مجال " المناسبة "[١٤٣].

يقوم (تناسق الدرر) على أساس ترتيب السور فى المصحف لا ترتيب النزول . والترتيب القرآنى المصحفى مختلف فيه بين العلماء: هل هو بتوقيف من النبى (ص) أم باجتهاد من الصحابة، بعد القطع بأن ترتيب الآيات توقيفى . المختار عند السيوطى أن ترتيب السور فى المصحف توقيفى، سوى الأنفال وبراءة "[١٤٤].

خاصية التناسب فى المعانى والمقاصد بين نصى سورتين متواليتين غالبا، وربما بين سورتين غير متواليتين مثل التناسب بين النساء والبقرة من وجوه، هى المنظور اللغوى العام الذى بنى عليه السيوطى كتابه . وهو منظور دعامته الاستقراء النصى . وقد دل السيوطى على استقرائه فى موضعين ؛ أحدهما: " القاعدة التى استقر بها القرآن: أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح له، وإطناب لإيجازه "[١٤٥]. والموضع الآخر: قوله :" وأمر آخر استقرأته، وهو: أنه إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد، فإن السورة الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على الاتحاد. وفى السورة المستقلة عما بعدها يكون آخر السورة نفسها مناسب لأولها"[١٤٦].

جدير بالإشارة أن السيوطى– مثل سابقيه– قد اتخذ فى كلامه عن وجوه التناسب مفردات عدة، منها: التناسق، والتلاحم، والارتباط، والاعتلاق، والالتئام،والتآخى، والتلازم والاتحاد، والاتصال . وهو يستخدم فى مواضع متماثلة عددا من تلك المفردات، حتى تبدو كأنها مترادفة عنده، وهو ما يجعل التمييز فيما بينها أمرا عسيرا، إلا ماندر جدا منها ؛ كأن يفيدنا السياق بأن الاتصال أعم من التناسب[١٤٧]،أو أن يفيدنا بأن التآخى يكاد يقتصر على التماثل فى المطلع أو المقطع[١٤٨]، ونحو ذلك .

السؤال الآن: ما العلاقات الدلالية– او بمصطلح السيوطى " وجوه التناسب"– التى يبنى على أساسها القول بالترابط بين سورة وأخرى ؟ .

يدلنا استقراء" تناسق الدرر " على أن الترابط الدلالى والمضمونى بين سورة وأخرى يرجع إلى إحدى العلاقات الجوهرية العشر التالية :

(أ) تفصيل المجمل

أشرت إلى أن القاعدة التى استقر بها القرآن- من وجهة نظر السيوطى-: أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح لـه، وإطناب لإيجازه. بناء على هذا، تصبح هذه العلاقة الدلالية أهم العلاقات التى وفرت للنص القرآنى المحكم خاصية الحبك. تفصيل المجمل إذن هو الملمح الرئيس من ملامح الحبك التى تصير كل سورة معها وحدة من وحدات الخطاب القرآنى المترابطة. سبق البديعيون السيوطى إلى إدراك هذه العلاقة من علاقات الحبك فى الخطاب العربى، ولكن السيوطى يجعلها- باستقرائه- قاعدة الخطاب القرآنى كله :

- فسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع مجملات الفاتحة(١٤٩).

- وسورة آل عمران شرح لإجمال مافى البقرة قبلها، ومثاله أن أول البقرة افتتح بوصف الكتاب بأنه لا ريب فيه . وقال فى آل عمران: " نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه " ٣ ": وذاك بسط وإطناب ؛ لنفى الريب عنه(١٥٠).

وهكذا تطرد للسيوطى قاعدته .

(ب) علاقة التلازم والاتحاد

استقرأ السيوطى هذا الأمر على نحو ما أشرنا . إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد كانت خاتمة السورة الثانية مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على الاتحاد. مثال ذلك أن آخر آل عمران مناسب لأول البقرة ؛ فإنها افتتحت بذكر المتقين، وأنهم المفلحون، وختمت آل عمران بقوله: "واتقوا الله لعلكم تفلحون"" ٢٠٠ "(١٥١).

وختمت المائدة بصفة القدرة، كما افتتحت النساء بذلك(١٥٢). وختمت المائدة بفصل القضاء، وافتتحت الأنعام بالحمد ؛ قال السيوطى: " وهما متلازمتان كما قال: "وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين " " ٣٩: ٧٥ "(١٥٣).

(جـ) تشابه الأطراف

يقول عنه السيوطى: " وهذا من أكبر وجوه المناسبات فى ترتيب السور . وهو نوع من البديع "(١٥٤). وتشابه الأطراف فى عمل السيوطى يعنى اشتراك أول السورة مع خاتمة ما قبلها فى الموضوع . من تشابه الأطراف الذى وقف عليه السيوطى أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى، وبدئت النساء به(١٥٥). وختمت يوسف بوصف الكتاب، ووصفه بالحق، وبدئت الرعد بمثل ذلك(١٥٦). وختمت الإسراء بالتحميد وافتتحت الكهف بالتحميد أيضا(١٥٧).

(د) علاقة المقابلة

المقابلة أو التقابل من وجوه التناسب بين السور فى عمل السيوطى . من الأمثلة على ذلك أن سورة الكوثر كالمقابلة لسورة الماعون قبلها ؛ لأن الماعون وصف الله سبحانه فيها المنافقين بأربعة أمور: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة ، وذكر فى الكوثر فى مقابلة البخل: " إنا أعطيناك الكوثر" "١"؛ أى: الخير الكثير . وفى مقابلة ترك الصلاة " فصل " "٢"؛ أى: دم عليها. وفى مقابلة الرياء " لربك " " ٢ " ؛ أى: لرضاه، لا للناس . وفى مقابلة منع الماعون: " وانحر " " ٢ " . وأراد التصديق بلحوم الأضاحى . أخذ السيوطى التأويل السابق عن الإمام فخر الدين الرازى (ت٦٠٦ هـ) (١٥٨).

(هـ) علاقة المقارنة

تستنبط هذه العلاقة من كلام السيوطى مثلا عن وجه الاتصال بين سورتى الفيل واللمزة . قال السيوطى: " لما ذكر حال الهمزة اللمزة، الذى جمع مالاوعده، وتعزز بماله وتقوى، عقب ذلك بذكر أصحاب الفيل، الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر أموالا وعتوا، وقد جعل كيدهم فى تضليل، وأهلكهم بأصغر الطير وأضعفه، وجعلهم كعصف مأكول فمن كان قصارى تعززه وتقويه بالمال، وهمز الناس بلسانه، أقرب إلى الهلاك، وأدنى إلى الذلة والمهانة "(١٥٩).

تبدو المقارنة هنا إذن علاقة دلالية رابطة بين طرفين لبيان صفة أو وضع لأحدهما مقارنا بالآخر.

(و) علاقة الملابسة

وتتجلى هذه العلاقة بين سورة الشمس والليل والضحى . قال السيوطي: "هذه الثلاثة حسنة التناسق جدا ؛ لما في مطالعها من المناسبة لما بين الشمس والليل والضحى من الملابسة، وفيها سورة الفجر، لكن فصلت بسورة البلد لنكتة أهم، كما فصل بين الانفطار والانشقاق وبين المسبحات؛ لأن مراعاة التناسب بالأسماء والفواتح وترتيب النزول، إنما يكون حيث لا يعارضها ما هو أقوى وآكد في المناسبة"[٦٠].

(ز) علاقة التحقيق

وتستنبط من كلام السيوطي عن السورتين إذا كانت بداية إحداهما قسم على تحقيق ما في سابقتها . من أمثلة هذه العلاقة ما لاحظه السيوطي من الارتباط بين سورة الفجر والغاشية قبلها . يقول السيوطي: " لم يظهر لي من وجه ارتباطها (يعني الفجر) سوى أن أولها كالإقسام على صحة ما ختم به السورة التي قبلها (يعني الغاشية) ؛ من قوله جل جلاله: " إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم " "٢٥، ٢٦ "، وعلى ما تضمنه من الوعد والوعيد . كما أن أول الذاريات قسم على تحقيق ما في (ق)، وأول المرسلات قسم على تحقيق ما في (عم)"[٦١].

(ح) بيان العلة

ويعني أن تقع السورة موقع العلة لما قبلها . من ذلك مثلا أن سورة البينة ـ كما يذكر السيوطي ـ واقعة موقع العلة لسورة القدر قبلها ؛ كأنه لما قال سبحانه : " إنا أنزلناه " "١"، قيل: لم أنزل؟ قيل: لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم، حتى تأتيهم البينة، وهو رسول من الله يتلو صحفا مطهرة . وذلك هو المنزل[٦٢].

من ذلك أيضاً أن أول سورة الحديد واقع موقع العلة للأمر بالتسبيح في آخر سورة الواقعة ؛ وكأنه قيل: " فسبح باسم ربك العظيم " لأنه " سبح لله ما في السموات والأرض "[٦٣].

(ط) الإتمام أو العطف

وذلك أن تكون السورة في ترتيبها كالتتمة لما قبلها . من الأمثلة على ذلك أن سورة المعارج – فيما ذكر السيوطي – كالتتمة لسورة الحاقة في بقية وصف يوم القيامة والنار[٦٤]. وسورة النمل كالتتمة للشعراء قبلها في ذكر بقية القرون، فزاد سبحانه فيها ذكر سليمان، وداود، وبسط فيها قصة لوط أبسط مما هي في الشعراء[٦٥].

يجعل السيوطي هذه العلاقة من العلاقات التي تصل بين سورة وأخرى ؛ كعلاقة سورة الشرح بالضحى قبلها . ينقل السيوطي عن الإمام فخر الدين الرازي قوله: "والذي دعاهم إلى ذلك (يعني ماذهب إليه بعض السلف في جعلهما سورة واحدة بلا بسملة) هو أن قوله : " ألم نشرح "كالعطف على: " ألم يجدك يتيما فآوى " " ٦ " في الضحى"[٦٦].

(ى) وصف الإطار الزمني

تستنبط هذه العلاقة من كلام السيوطي مثلا عن وجه الاتصال بين سورتي البينة والزلزلة. قال السيوطي: " لما ذكر في آخر " لم يكن " (يعني البينة) أن جزاء الكافرين جهنم، وجزاء المؤمنين جنات، فكأنه قيل: متى يكون ذلك ؟ فقيل: " إذا زلزلت الأرض زلزالها " " ١ " ؛ أي: حين تكون زلزلة الأرض، إلى آخره"[٦٧].

تلعب العلاقات الدلالية على النحو الذي رأيناه دورا بالغا في الوصل بين سورة وأخرى. يمكن – في استقراء موسع – أن نضع الأيدي على مزيد من العلاقات ، ميزنا هنا بين عشر علاقات دلالية على الأقل، كانت من ركائز السيوطي المهمة في الكشف عن التناسب بين السور . من أجل

ذلك، لانرى وجها لاقتصار محمد خطابى على ثلاث من العلاقات الدلالية فى عمل السيوطى[١٦٨]. نرى فى ذلك إجحافا بجهد السيوطى الجهيد فى تحليل النص القرآنى من منظور التناسب من ناحية، ونراه – من ناحية أخرى – أقل كثيرا من أن يصور حقيقة ثراء العلاقات بين طائفة من النصوص يجمعها نص أكبر واحد.

هناك أمر آخر ينبغى لنا أن ننوه به ؛ وهو أن " التناسب " عند السيوطى يتجاوز العلاقات الدلالية المذكورة آنفا، إلى كل مظاهر الاتصال الموضوعى والمضمونى والمنطقى التى تجعل وضع إحدى السور بعد الأخرى أنسب من وضع غيرها موضعها.

يمكن توضيح ذلك بمثال من عمل السيوطى، وليكن ما ذكره من وجوه للتناسب بين سورة البقرة والفاتحة قبلها. هذه الوجوه عنده هى :

(الوجه الأول): " سورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع مجملات الفاتحة ".

(الوجه الثانى): " أن الحديث والإجماع على تفسير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى. وقد ذكروا فى سورة الفاتحة على حسب ترتيبهم فى الزمان، فعقب بسورة البقرة، وجمع ما فيها من خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة، وما وقع فيها من ذكر النصارى لم يقع بذكر الخطاب .... ".

(الوجه الثالث): " أن سورة البقرة أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال،....، فناسب تقديمها على جميع سوره ".

(الوجه الرابع): " أنها أطول سورة فى القرآن، وقد افتتح بالسبع الطوال، فناسب البداءة بأطولها ".

(الوجه الخامس) " أنها أول سورة نزلت بالمدينة، فناسب البداءة بها، فإن للأولية نوعا من الأولوية ".

(الوجه السادس): " أن سورة الفاتحة كما ختمت بالدعاء للمؤمنين بألا يسلك بهم طريق المغضوب عليهم ولا الضالين إجمالا، ختمت سورة البقرة بالدعاء بألا يسلك بهم طريقهم فى المؤاخذة بالخطأ والنسيان، وحمل الإصر، ومالا طاقة لهم به تفصيلا، وتضمن آخرها أيضا الإشارة إلى طريق المغضوب عليهم والضالين بقوله: " لانفرق بين أحد منهم " " ٢٨٥ " فتآخت السورتان وتشابهتا فى المقطع. وذلك من وجوه المناسبة فى التوالى والتناسق ... فهذه ستة وجوه ظهرت لى "[١٦٩].

يتضح مما سبق ما ألمحنا إليه آنفا: يتسع التناسب هنا ليشتمل على العلاقات الدلالية: كتفصيل المجمل، وعلى وجوه أخرى لغوية: كالتناسب الموضوعى فى خطاب أهل الكتاب، والاشتراك فى مضمون الخاتمة، أو وجوه خارجة عن نطاق اللغة: كالطول، وترتيب النزول.

لاريب أن طبيعة النص المدروس الخاصة من الناحيتين: اللغوية وغير اللغوية، قد فرضت مثل هذا التوسع فى استخدام مفهوم " التناسب " عند السيوطى. هذا ما يؤكده عمل آخر للسيوطى فى التناسب بين المطلع والمقطع فى السورة الواحدة ؛ وهو رسالته: " مراصد المطالع فى تناسب المقاطع والمطالع ". فضلا عن خروجه بنطاق المطلع عما تعارفه سابقوه، حتى يصل المطلع عنده إلى نصف السورة الأول والمقطع إلى نصفها الآخر[١٧٠]، فقد اتسع " التناسب " عنده إلى أن جعل الاشتراك بين المقطع والمطلع فى موضوع أو محور خطابى وجه التناسب الرئيس. من ذلك مثلا أن " هود " و" يوسف " و " الرعد " و" إبراهيم " و"الحجر"، كلها مفتتحة بذكر القرآن، ومختتمة به[١٧١]. وفى حالات غير قليلة يظهر وجه التناسب فى هيئة علاقة دلالية ما.

على أى حال، فمن المسلم به أن لدراسة السيوطى عن " تناسب السور " خصوصية من جانب قيامها على نص منزل من لدن حكيم خبير للناس كافة. ولكن هذا النص قد أحكمت معانيه ومقاصده علاقات دلالية ومضمونية فى كل جزء من أجزائه فى محيط نظمه الكلى. من ثم، يظل السؤال التالى مشروعا: إذا اتخذنا دراسة السيوطى عن " تناسب السور " نموذجا لدراسة

تطبيقية عن خاصية الحبك بين طائفة من النصوص فى إطار نص مترابط أكبر، فما المعطيات النظرية العامة التى توقفنا عليها مثل تلك الدراسة ؟ .

يمكن إيجاز تلك المعطيات فيما يلي:

١- يجمع النص بالآخر فى محيط نص مترابط أكبر علاقتان دلاليتان اثنتان على الأقل: إحداهما علاقة مطردة بين جميع النصوص، من حيث إن أحدهما يفصل مجمل الآخر، ومن حيث إن كلا منها جزء من كل، والأخرى متغيرة حسب موقع النص مما قبله وما بعده .

٢- كلما طال نصان متواليان فى نص مترابط مطول، كانت فرصة لأن تجمع بينهما أكثر من علاقتين اثنتين . هذا مانراه واضحا فى عمل السيوطى بين معظم السور المدنية .

٣- إذا كان إحصاء العلاقات الدلالية بين المنطوقات وأجزاء النص الواحد عملا متاحا، فإن إحصاء العلاقات الدلالية بين طائفة من النصوص التى يقوم عليها نص أكبر واحد، يبدو شيئا غير يسير، وقابلا للتأويل والتعدد . ولعل ما استشعره السيوطى من تجاوز وجوه التناسب والاتصال بين سور القرآن ما ذكره فى عمله، كان وراء قوله: " وجميع هذه الوجوه التى استنبطتها من المناسبات بالنسبة للقرآن كنقطة من بحر "[١٧٢].

٤- ليست العلاقات بين نصين فى مدونة كبرى من حيث المعنى والمقصد ظاهرة دائماً . تظهر هذه العلاقات حينا، ولكنها خفية فى أحيان أخرى . يرتبط خفاء العلاقات بطول النص ومقصده فى كثير من الأحيان . وفى عمل السيوطى رأينا وجوه اتصال السورة بالأخرى ظاهرة، ولكنها تحتاج إلى تأمل وروية فى أحيان غير قليلة . عبر السيوطى عن هذه المسألة فى غير موضع من كتابه:

- عن سورة " إبراهيم " قال: وجه وضعها بعد سورة الرعد، زيادة على ما تقدم، **بعد إفكارى فيه برهة** "[١٧٣].

- وعن وجوه مناسبة " تبارك " لسورة " التحريم " قبلها قال: " ظهر لى **بعد الجهد**.. "[١٧٤].

- وعن وجه اتصال " نوح " بسورة " المعارج " قبلها قال: " أكثر ما ظهر فى وجه اتصالها بما قبلها بعد **طول الفكر** أنه "[١٧٥].

- وعن وجه اتصال " الجن " بسورة " نوح " قبلها قال: " **قد فكرت مدة** فى وجه اتصالها بما قبلها "[١٧٦].

٥- للاستدلال دور مهم فى استنباط العلاقات الدلالية التى لم يصرح بها الخطاب . يمكن أن نضرب على ذلك مثلا نوع الاتصال بين سورة " نوح " و"المعارج " قبلها ؛ قال السيوطى: "أكثر ما ظهر فى وجه اتصالها بما قبلها بعد طول الفكر أنه سبحانه لما قال فى " سأل " (يعنى المعارج): " إنا لقادرون . على أن نبدل خيراً منهم " " ٤١ "، عقبه بقصة قوم نوح ، المشتملة على إبادتهم عن آخرهم، بحيث لم يبق منهم ديار، وبدل خيرا منهم، فوقع الاستدلال لما ختم به تبارك "[١٧٧] . وفى الاتصال بين " تبارك " و " التحريم " قبلها، يقول السيوطى: " ظهر لى بعد الجهد: أنه لما ذكر آخر التحريم امرأتى نوح ولوط الكافرتين، وامرأة فرعون المؤمنة، افتتحت هذه السورة بقوله :" الذى خلق الموت والحياة " " ٢ "، مرادا بهما الكفر والإيمان فى أحد الأقوال، للإشارة إلى أن الجميع بخلقه وقدرته، ولهذا كفرت امرأتا نوح ولوط، ولم ينفعهما اتصالهما بهذين النبيين الكريمين، وآمنت امرأة فرعون، ولم يضرها اتصالها بهذا الجبار العنيد، لما سبق فى كل من القضاء والقدر "[١٧٨].

من المقرر – فى علم لغة النص ونظرية تحليل الخطاب – أن خطاب اللغة الطبيعية – على عكس الخطاب الشكلى – ليس خطابا صريحا تماما explicit . يمكن أن تقع العلاقات بين الجمل والقضايا دون أن يعبر عنها . وهذه هى العلة فى أن البنية النظرية للنص ضرورية لبيان كيفية تفسير الخطابات بأنها مترابطة حتى وإن كانت معظم القضايا اللازمة لإنشاء الحبك تبقى

ضمنية implicit، على نحو القضايا المستلزمة عن قضايا أخرى قد عبر عنها فى الخطاب تعبيرا صريحا . هنا يكون للاستدلال دور[١٧٨]. وقد رأينا فى التوطئة كيف يمكن لنا أن نقوم بتركيب "الحلقات المفقودة " فى الخطاب بواسطة قوانين الاستدلال Rules of Inference.

٦ـ إذا كانت بنية النص الكبرى هى بنية المحتوى النصى الشاملة التى تؤثر على مقصده الرئيس، فإن بنية النصوص المكونة لنص أكبر ممتد ينبغى لها أن تكون- عبر علاقات المحتوى الكبرى فيها – ما يمكن تسميته بالبنية النصية العظمى . فى ضوء هذا يمكن أن نفهم كلام القدماء عما أسموه " المقصد الأعظم من القرآن " . مثال ذلك أن الإمام فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦ هـ) جعل" المقصد الأعظم من القرآن " هو تقرير أمور أربعة: الإلهيات، والمعاد، والنبوات، وإثبات القضاء والقدر[١٧٩].

٥ـ خلاصات وتعقيبات

كان النص الأدبى عند البلاغيين والنقاد، والنص القرآنى عند البلاغيين والعاملين فى حقل التفسير وعلوم القرآن، المادة النصية التى نهضت عليها تنظيرات القدماء وتبصراتهم فى حبك الكلام وإيقاع المناسبة بين أجزائه . ولاريب أن اتخاذ كل من النص القرآنى والنص الأدبى مركزا للعمل فى حبك النص مبرر برغبة فى أن تصدر تنظيراتهم عن نماذج لغوية عليا، تزود بالمثال المحتذى . وبدهى أن يكون الوقوف على النماذج الأدبية المعيبة مطلعا أو تخلصا أو خاتمة أو وصلا بين الأجزاء، قصدا إلى استهداف النقيض عند صناعة الكلام .

فضلا عن اصطلاح الحبك، استخدمت مفاهيم أخرى تؤدى إليه ؛ كالتناسب والالتحام والارتباط والتعلق والمجانسة والمؤاخاة ونحوها . فى ظل ذلك قدم القدماء طائفة من التصورات والمبادئ التى ربطت تمام حسن الكلام بحبكه وتناسب المعانى بين أجزائه . يمكن أن نجمل تلك التصورات والمبادئ فيما يلى :

١ـ مبدأ انتظام المعانى واتصال الكلام ودلالته على الاستمرارية المعنوية فى النص .

٢ـ مبدأ مجانسة الجزء للكل، وهو مارأيناه على نحو تطبيقى فى باب "الابتداء والتخلص والانتهاء " . ومن الدراسة التطبيقية، استمدت القوانين التى تحكم كل جزء بما بعده وبما قبله لغويا وموقفيا :

(أ) فالابتداء ذو علاقة موقفية بمقام الاتصال، ولغوية بالوحدات التى تليه: بيتا شعريا، أو جملة فى رسالة أو خطبة .

(ب) والتخلص على علاقة لغوية بما قبله وما يليه . ويشترط فيه التدرج .

(ج) والانتهاء قاعدة النص .

٣- اتخاذ فكرة التناصر أساسا لترتيب المبادئ إلى رتبها الثلاث المعروفة عند حازم .

٤- اتخاذ معيار المناسبة وفكرة التناصر منظورا لغويا إلى " بنية النص "، مما يعكس فهما للنص كلا دلاليا متفاعل الأجزاء .

٥- أنواع اقتران المعانى (أو جهات التعلق)، وهى عند حازم: اقتران التماثل، واقتران المناسبة، واقتران المطابقة أو المقابلة الخ .

٦- ربط مقاصد النظم بقوى فكرية مختلفة ؛ كالقوة على تصور صورة مثلى للقصيدة ، والقوة على تنظيم المعانى وتوزيعها بين الفصول، والقوة على ملاحظة وجوه التناسب بين تلك المعانى . وينبغى لما وصل إليه حازم فى مبحث " القوى الفكرية " أن يعد من الأسس الإجرائية فى تحليل النص وفهمه .

٧- قوانين الوصل بين الفصول، وتصنيف هذه الفصول ـ من خلال جهد ظاهر عند حازم فى استقراء النصوص ـ إلى ضروبها الأربعة .

٨- العلاقات الدلالية التى فطن إليها حازم، فضلا عن " وجوه التناسب " المعلنة فى عمل السيوطى أو التى يمكن أن تستنبط منه، وقد زودنا عمل السيوطى عن "تناسب السور" بمعطيات نظرية ستة مهمة، نود أن نبرز منها هنا - على وجه الخصوص - أمرين:

(أ) أهمية هذا العمل فى تجلية الاختلافات أو القواسم المشتركة بين طبيعة العلاقات الدلالية بين نصين أو أكثر فى مدونة نصية كبرى، من حيث ظهور العلاقات واختفائها، أو من حيث عدد العلاقات الأقل الذى يلزم وقوعه للربط المعنوى أو المضمونى فى الحالتين ؛ أو من حيث العلاقة الطردية بين طول النص وعدد العلاقات الكامنة الخ .

(ب) أهمية هذا العمل فى توكيد دور الاستدلال فى اكتشاف العلاقات الدلالية الخفية التى لم يصرح بها الخطاب .

فى ضوء ما سبق، يمكن وضع الأيدى على حقيقتين اثنتين على الأقل :

(أولاهما) أن القدماء قد فهموا النص وحدة كلية مترابطة الأجزاء، متجانسة الدلالات والمعانى والمضامين . ولايند عن ذلك إلا نظرتهم إلى القصيدة المركبة . وهو ما سنعقب عليه بعد قليل .

و(الأخرى) أن التصورات والمبادئ السابقة جميعا، وهى حصائد فكر المهتمين بصناعة الكلام والنصوص من اللغويين والبلاغيين، تكاد تشغل جميع المنظورات التى حددها ليفاندوسكى للحبك فى علم اللغة النصى :

- فالحبك أداة لغوية لفهم السبك فهما أعمق، نراه فى روايات الجاحظ عن بعض منتجى النصوص، وفى إشارت ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، وابن طباطبا(ت ٣٢٢هـ) والحسين بن وهب (ت ٣٣٧هـ) وأبى هلال العسكرى (ت ٣٩٥ هـ) وابن رشيق (ت ٤٥٦هـ)، وأسامة بن منقذ (ت ٥٣٠هـ) وضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٦هـ) عن: الكلام المضموم إلى لفقه، والكلام الآخذ بعضه برقاب بعض، وانتظام المعانى، وتشاكل المصراعين، وإنباء الموارد عن المصادر، والمشاكلة بين الألفاظ، وربط الحبك بالسبك، وذكر المعنى مع أخيه لامع أجنبى الخ .

- والحبك خاصة من خصائص الارتباط بين الأشياء والأوضاع وبين مراجعها، نراه فى وجوه التناسب التى اتسع بها السيوطى فى عمله عن تناسب السور، حتى خرجت عن العلاقات الدلالية المحددة إلى التناسب بين السورتين فى الارتباط بمرجعية واحدة ؛ كأن يكون الموضوع المتكلم عنه واحدا فى المطلع أو المقطع .

- والحبك خاصة من خصائص إطار الاتصال الاجتماعى، نراه فى اشتراط مناسبة المطالع للمقاصد، ومقامات الاتصال، وأحوال المخاطبين، وما يروق للممدوحين سماعه فى فصول المديح ؛ فلا يمدح الشاعر بما هو بالرثاء أجدر، وأن يرعى دور المخاطب الاجتماعى ؛ فلكل طبقة ما يشاكلها، فضلا عن رعايته موقف الاتصال الخارجى، فلا يتغزل إذا كان الكلام فى حادثة لايناسبها الغزل !.

- والحبك إجراء وحصيلة للتلقى الابتكارى البناء، نراه فى كلام حازم عن دور المتلقى فى الاستدلال على الشئ بما هو أعم منه، أو فى دوره عند السيوطى فى الاستدلال على العلاقات الدلالية التى لم يصرح بها الخطاب .

ليس القصد مما سبق تعبئة ما وصل إليه القدماء من تصورات ومبادئ فى قوالب جديدة من عمل النظرية اللغوية المعاصرة، وأن القدماء وصلوا إلى ما وصل إليه المحدثون، وانتهوا إلى ما انتهوا إليه، حتى لم تعد بنا حاجة إلى تلك النظريات اللسانية المحدثة . المضاهاة السابقة بين منظورات القدماء والمحدثين نوع استضاءة بمحددات المحدثين النظرية المحكمة، وقد كشفت عن إلمام التراث العربى فى مجال الحبك بطائفة من التبصرات الجوهرية والخطوط العريضة . غنى عن البيان أن المنظورات الأربعة التى حددها ليفاندوفسكى للحبك على النحو السابق قد رفدتها

اتجاهات لغوية حديثة عدة، مثل اللغويات الاجتماعية، ونظرية أفعال الكلام، ونظريات التلقى ونحوها ، أما اجتهادات القدماء، فقد رفدتها نظرة شمولية ثاقبة فى صناعة الخطاب العربى، تجمع بين العلم والذوق . أقصد بالعلم هنا العلم اللغوى بمعناه العام (النحوى والدلالى والمقامى) الذى يلزم توصيف ظواهر كلامية ونصية مفردة، من حيث الصياغة ومن حيث كيفية الوصول إلى المؤثرات الاتصالية المثالية: ترتيب الأفكار، وتنظيم أجزاء الكلام...الخ .

أما الذوق، فقد لاحظناه فى مواطن كثيرة مما سبق، نحو خلع أوصاف الاستحسان والاسترذال على المطالع والتخلصات والخواتيم، ونحو ربط حازم وغيره بين القصيدة المركبة والنفوس الصحيحة الأذواق . ويمكن أن نضيف هنا تعليق أبى هلال على المناسبة المعنوية بالمطابقة فى قوله تعالى: " وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى " (النجم ٤٣ ـ ٤٥) وقوله " وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى " (الضحى ٤ ـ ٥) بقوله: " فأبكى مع أضحك وأحيا مع أمات، والأنثى مع الذكر، والأولى مع الآخرة، والرضا مع العطية، فى نهاية الجودة وغاية حسن الموقع "[١٨٠]. مثل ذلك ما نراه فى السبك أيضا . أضرب مثالا على ذلك من مبحث " المنافرة بين الألفاظ فى السبك " . قال ابن الأثير: " أنشد بعض الأدباء بيتاً لدعبل (ت ٢٤٦ ه)، وهو :

شفيعك فاشكر فى الحوائج إنه يصونك من مكروهها وهو يخلق

فقلت له: عجز هذا البيت حسن، وأما صدره فقبيح: لأنه سبكه قلقاً نافراً، وتلك الفاء التى فى قوله: " شفيعك فاشكر " كأنها ركبة البعير، وهى فى زيادتها كزيادة الكرش!. فقال: لهذه الفاء فى كتاب الله أشباه، كقوله تعالى: " يأيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر " (المدثر ١ـ٤) . فقلت له: بين هذه الفاء وتلك الفاء فرق ظاهر يدرك بالعلم أولا، وبالذوق ثانيا .

أما العلم: فإن الفاء فى " وربك فكبر وثيابك فطهر " وهى الفاء العاطفة، فإنها واردة بعد " قم فأنذر "، وهى مثل قولك " امش فأسرع " و" قل فأبلغ " . وليست الفاء التى فى " شفيعك فاشكر " كهذه الفاء ؛ لأن تلك زائدة، لا موضع لها. ولو جاءت فى السورة كما جاءت فى قول دعبل ـ وحاش لك من ذلك لابتدئ الكلام، فقيل: ربك فكبر، وثيابك فطهر . لكنها لما جاءت بعد " قم فأنذر " حسن ذكرها فيما يأتى بعدها من " وربك فكبر. وثيابك فطهر " .

وأما الذوق: فإنه ينبو عن الفاء الواردة فى قول دعبل، ويستثقلها، ولا يوجد ذلك فى الفاء الواردة فى السورة .

فلما سمع ما ذكرته أذعن بالتسليم "[١٨١].

وهناك فرق جوهرى فى المادة اللغوية المعتمدة للتحليل بين التراث العربى وعلم اللغة النصى . يلحظ المرء أن نماذج الدراسة النصية منذ عام ١٩٧٠ م، قد جعلت مركز اهتمامها التعريف بتوظيف النصوص فى سياقات الحياة اليومية . وقد تبع ذلك أن تكون مادة التحليل اللغوية نصوص المحادثات التى تمثل جانبا مهما من جوانب النشاطات الاجتماعية اليومية، وهى كما نعرف نصوص تبنى على التفاعل المباشر المطلق بين المشتركين فيها . أما مادة التحليل عند العرب، فقد كانت كما رأينا النصوص القرآنية والنصوص الأدبية . وغنى عن البيان أن النص القرآنى يقدم النموذج الأعلى للغة المسبوكة المحبوكة، وفى النصوص الأدبية يرى هؤلاء الباحثون العرب نماذجهم المنشودة . ومعلوم أن ظروفا وأسبابا تاريخية مرتبطة بالمقاصد الكبرى للتأليف والتصنيف فى العربية، قد جعلت ذلك أمرا طبيعيا . ولكنا نحسب أن لو كان قدر لطائفة من اللسانيين المحترفين أن يجعلوا الاستخدام اللغوى فى شكله التفاعلى المنطوق غير الأدبى مادة لتحليل الطرق التى يتحقق بها الحبك، لكانوا كما هو المظنون بهم قد قدموا مزيدا من التصورات والحقائق، على نحو ما رأينا عند لابوف و ودوسون مثلا، من ربط تحقق الحبك بالعلاقة بين أفعال الكلام الإنجازية .

من ناحية أخرى، فإن مقارنة ما انتهى إليه القدماء عن مشكل الحبك فى طراز القصيدة المركبة بما استقر فى علم اللغة النصى ونظرية تحليل الخطاب من مفاهيم مركزية، تؤكد أن الذين جعلوا النص الشعرى المركب موافقا للنفوس صحيحة الأذواق ؛ كابن طباطبا وحازم، قد غلبوا الذوق على العلم، وضربوا بمفاهيم جوهرية فى علم اللغة النصى ونظرية تحليل الخطاب عرض الحائط ؛ أعنى مفاهيم مثل " محور الخطاب Discourse Topic " و" عالم النص Textual World" و"بنية النص الكبرى Macro – Structure" .

فى القصيدة المركبة يصبح " محور الخطاب " " وعالم النص " و " بنية النص الكبرى " على مستوى الفصل الواحد من النص، لا النص الكامل . لكل فصل محوره أو موضوعه الذى تعتمد عليه علاقات الحبك بين الجمل وما تعبر عنه من قضايا . ولكل فصل عالمه النصى الذى يبنيه فى ذهن القارئ تناسق المفاهيم والعلاقات فى حيز معرفى Knowledge Space بعينه . وعالم النص أحد فروع الموقف : والموقف ـ كما نعرف ـ مرتبط بخطط أطراف الاتصال وغاياتهم . مع تباين المفاهيم والعلاقات سيفقد النص الشعرى المركب موقفيته الموحدة . وينسحب ذلك على بنيته الكبرى ؛ وذلك أن البنية الكبرى لا تقتصر على العلاقات بين القضايا المتجاورة، إنما هى بنية شمولية تلتقط عناصرها من مجموع قضايا النص المتآلفة. بناء على ذلك، يتعذر تحصيل بنية كبرى واحدة لنص شعرى مركب .

بيد أن المرء لايعدم قصائد مركبة من الشعر العباسى بخاصة، يفتح لها التأويل بابا على تآلف المحاور، ومكونات عالم نصى واحد، وبنية كبرى واحدة. ولكنها ليست مركبة من طراز: النسيب – المديح، الذى تفاجئ فيه النقلة من كلام عن الذات إلى كلام عن الآخر، ولكنها من طراز: النسيب – الفخر، الذى تؤلف بين غرضيه ذات الشاعر . أضرب مثالا على ذلك دالية البحترى (ت ٢٨٤ هـ) التى مطلعها :

سلام عليكم لا وفاء ولاعهد أما لكم من هجر أحبابكم بد ؟[١٨٢]

صنفت هذه الدالية شكليا على أنها فى وصف لقاء الشاعر بالذئب . وهذا يعنى مبدئيا غض الطرف عن فصل النسيب فيها، أو النظر إليه على أنه هامش على متن الوصف . ولكننا نرى أن القصيدة تتوزع بين هند التى غدرت به، وأهله الذين ظلموه، والحياة التى تجره إلى الصراع والمواجهة . ولم يكن مشهد الصراع بين الشاعر والذئب إلا وسيلة فنية للتدليل على أن ذلك الشاعر الذى كانت له الغلبة فى ذلك الصراع مع ذئب شرس، إنما هو أقوى من غدر هند وظلم أهله، وأقدر على أن يخوض فى ذلك المحيط الاجتماعى المتوثب كافة الصراعات والمواجهات حتى مع ذئاب أخرى من عالم الإنسان، فإن لم يقدر له الفوز أسلم أمره للقدر ! .

من أهم ما يدعم التأويل السابق اطراد جملة من المفاهيم التى تدور حول غدر هند والتى تجمع بين فصل النسيب وما بعده ؛ فالكلام فيما تلاه عن ظلم الأهل وقسوة الحياة . ولعل الفصل الأخير من النص والذى يبدأ بـ :

لقد حكمت فينا الليالى بجوهرها وحكم بنات الدهر ليس له قصد

لعله لا يعدو أن يكون خاتمة مطولة بدت قاعدة الدالية، ووقعت مما قبلها جميعا موقع النتيجة من السبب .

بناء على ذلك، نرى النسيب فى مثل ذلك النص مختلفا عنه فى نصوص أخرى وقد تلاه مديح . ولعل عزوف البحترى عن التخلص فى موضع يحرص غيره عليه فيه مبرر هنا بما يشد الفصول بعضها إلى بعض من علاقات دلالية .

ومهما يكن من أمر، فقد وقف القدماء على توصيف طائفة من المبادئ العامة للممارسة اللغوية فى شكلها النصى من حيث خاصية الحبك، وعالجوا كثيرا من الإشكاليات عن بنية النص وعلاقات أجزائه من خلال جملة من القوانين العامة، على رغم أنهم لم يجروا فى تلك المعالجات على عرف ولم يعملوا فيها على شاكلة . وقد برهن ما انتهى إليه هؤلاء من تصورات ومبادئ عن الحبك على أن للنظرية اللغوية فى تحليل النص عند العرب امتدادات بعيدة فى مصادر التراث

اللساني البلاغي، وأن ذلك التراث ما زالت به إمكانيات مختلفة للتزويد بأصول مرضية لتطوير علم لغوي نصي عربي، وأنه ليس دارا خربة نسج عليها العنكبوت!.

الهوامش:

(1) Hartmann, R. R. K.: **Contrastive Textology: Comparative Discourse**. Julius Groos Verlag, Heidelberg (1980), pp. 10 – 13.

(٢) ترجم الكتاب عمر أوكان، ونشرته دار أفريقيا الشرق ١٩٩٤ .

(٣) تمام حسان: **المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة**، مجلة فصول ـ سبتمبر(١٩٨٧م) ص٢٦.

(4) Halliday, M. A. K.: **Language as Social Semiotic**. Edward Arnold London (1993) p. 137

(5) Halliday, M. A. K. – Hasan, Ruqaiya: **Cohesion in English**. Longman, London – New York (1983) p. 25

(6) De Beaugrande, R. – A. / Dressler, W.U.: **Introduction to Text** – Linguistics, Longman. London – New York, (1983) p. 113.

(7)Brinker, Klaus: **Textbegriff in der heutigen Linguistik in: Studien zur Texttheorie und zur deutschen Grammeatik** . Duesseldorf (1973) SS.9-41, S. 13.

(8)Heinemann, W. – Viehweger, D.: **Textlinguistik, Eine Einfuehrung**. Max Niemeyer Verlag (1991) S. 49.

(9)Sowinski, Bernhard: **Textlinguistik,** Verlag W. Kohlhammer. Stuttgart – Berlin – Koeln – Mainz (1983) S. 83.

(10)Lewandowski, Theodor: **Linguistisches Woerterbuch**, Quelle u. Meyer, 6 Auflage. Heidelberg. Wiesbaden (1994) S. 546

(11)Lewandowski , op. cit, SS. 546- 47

(١٢) دوبوجراند، روبرت: **النص والخطاب والإجراء**، ترجمة د. تمام حسان. عالم الكتب ـ القاهرة(١٩٩٨) ط ١ ص ١٠٣.

(13)Van Dijk, Teun, A.: **Text and Context,** Longman – London– New York (1980) p. 95

(14)**Text and Context,** op. cit, p. H 93.

(15)**Text and Context,** ibid, p. 94

(16)Grabe, William: **Written Discourse Analysis**: Kaplan R. B. (ed.) Annual / Review of Applied Linguistics 5: 101 – 123.

(17)**Text and Context,** op. cit, p. 95 .

(18)Widdowson, H. G.: **Teaching Language as Communication**. Oxford Uni. Press (1994) p. 44

(19)**Teaching Language**, op. cit. pp. 27 – 28

(20)**Teaching Language**, op. cit. pp. 28 – 29

(21)Brown, Gillian – Yule, George: **Discourse Analysis**, Cambridge Uni.-Press (1984) p. 226

(٢٢) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي- القاهرة ط ٥ (١٤٠٥هـ ١٩٨٥ م) ١/٢٠٦

(٢٣) ابن قتيبة (أبو محمد الدينوري): **الشعر والشعراء**، بيروت (١٩٦٤م)١/٢٥-٢٦

(٢٤) ابن طباطبا (أبو الحسن محمد بن احمد): **عيار الشعر**، تحقيق دكتور عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، د. ت. ، ص ٢٠٩.

(٢٥) **عيار الشعر** ص ٢٠٩- ٢١٠

(٢٦) **عيار الشعر** ص ٢١٢

(٢٧) العسكري (أبو هلال الحسن ين عبد الله بن سهل): **كتاب الصناعتين**، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١ (١٣٧١هـ ١٩٥٢م) ص ١٤١-١٤٢. والعرية: مأوى الأسد والضبع وغيرهما . الخرق: الأرض البعيدة والفلاة الواسعة . الوجناء: الناقة الشديدة. والحرف من الإبل: النجيبة الماضية .

(٢٨) **كتاب الصناعتين** ص ١٤١

(٢٩) المرجع السابق ص ١٤١

(٣٠) **كتاب الصناعتين** ص ١٤٣

(٣١) ابن وهب (أبو الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب): **البرهان فى وجوه البيان**، تحقيق د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثى، ساعدت جامعة بغداد على نشره، ط ١ (١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م) ص ١٦٣.

(٣٢) المرجع السابق ص ١٦٤.

(٣٣) ابن رشيق (ابو على الحسن): **العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت ط ٤ (١٩٧٢م) ٢٥٨/١.

(٣٤) ابن منقذ (أسامة): البديع فى نقد الشعر، تحقيق د. احمد بدوى ود. حامد عبد المجيد، مراجعة إبراهيم مصطفى -وزارة الثقافة والإرشاد القومى د.ت ص ١٦٣.

(٣٥) عيار الشعر، مرجع سابق ص ٢٠٣

(٣٦) ابن الأثير (ضياء الدين): المثل السائر، قدمه وعلق عليه د. أحمد الحوفى ود. بدوى طيانة - دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة د.ت ١٤٥/٣. والشنب برد وعذوبة فى الأسنان . واللعس سواد مستحسن فى الشفة.

(٣٧) المرجع السابق ١٥٤/٣.

(٣٨) المرجع نفسه ١٥٥/٣، وانظر نماذج أخرى من عدم المؤاخاة بين المعانى فى شعر أبى نواس ١٥٥/٣ - ١٥٦.

(٣٩) المثل السائر ١٦٥/٣ - ١٦٦

(٤٠) المرجع السابق ١٦٥/٣

(٤١) راجع: جميل عبد المجيد (دكتور): البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٨م) ص ١٤٣ وما بعدها.

(٤٢) الصناعتين ص ٤٠٥.

(٤٣) كتاب الصناعتين ص ٤١٦

(٤٤) الآمدى (الحسن بن بشر يحيى): الموازنة بين أبى تمام والبحترى، تحقيق وتعليق محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية - بيروت د.ت ص ٣٨١.

(٤٥) المرجع السابق ص ٤٠٨

(٤٦) المثل السائر ٤١٤/٢

(٤٧) ابن خلدون: المقدمة، الدار التونسية للنشر، تونس (١٩٨٤م) ٢٣٩/٢

(٤٨) المرجع السابق ٢ / ٢٣٩

البيان والتبيين ١/ ١١٥ ـ ١١٦

(٥٠) المرجع السابق ١ /١١٢

(٥١) المرجع نفسه ١ / ٧٥

(٥٢) العمدة ١ / ٢١٨

(٥٣) البيان والتبيين ١ / ١١٣

(٥٤) العمدة ٢٢٢/١

(٥٥) الجرجانى (القاضى على بن عبد العزيز): الوساطة بين المتنبى وخصومه . تحقيق وشرح: محمد أبوالفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى . دار إحياء الكتب العربية، ط ٣ د. ت ص ١٥٥ ـ ١٥٩

(٥٦) المثل السائر ٩٩/٣

(٥٧) العمدة ٢٢٣/١

(٥٨) عيار الشعر ص ٩

(٥٩) المثل السائر ٩٦/٣ - ٩٧

(٦٠) العمدة ٢١٦/١

(٦١) المثل السائر ٩٦/٣

(٦٢) الكلاعى (أبو القاسم محمد بن عبد الغفور): إحكام صنعة الكلام. حققه وقدم له د.محمد رضوان الداية. عالم الكتب، ط ٢(١٤٠٥هـ ١٩٨٥م) ص ٦٧

(٦٣) المرجع السابق ص ٧٥

(٦٤) المرجع نفسه ص ٧٦

(٦٥) المثل السائر ٣ / ١٠٩

(٦٦) إحكام صنعة الكلام ص ٧٦

(٦٧) العمدة ١ / ٢٣٦

(٦٨) البيان والتبيين ١ / ١٠٦

(٦٩) ابن المعتز (عبد الله): كتاب البديع، نشره وعلق عليه أغناطيوس كراتشقوفكسى . دار المسيرة - بيروت - ط ٣ (١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م) ص ٦٠ - ٦٢

(٧٠) ابن حمزة (يحيى بن حمزة العلوى): الطراز، دار الكتب العلمية، بيروت، د . ت ٣ / ٣٦٥

(٧١)إحكام صنعة الكلام ص ٧٨ - ٧٩

(٧٢) البيان والتبيين ١ / ٢٠٦

(٧٣) راجع : العمدة ١/ ٢٣٩

(٧٤) عيار الشعر ص ١٨٧

(٧٥) الصناعتين ص ٤٥٣ - ٤٥٤

(٧٦) عيار الشعر ص ٩

(٧٧) المرجع السابق ص ٢١٣

(٧٨) ما لاحظه ابن رشيق من خروج أبى تمام فى قصيدة له وسط النسيب إلى مدح، ثم عودته إلى ما كان فيه من النسيب، ثم رجوعه إلى المدح، بنوع من الخروج يسميه بالإلمام، لم يكن من مذاهب العرب المشهورة: (راجع: العمدة ١ / ٢٣٨ - ٢٣٩) .

(٧٩) محمد خطابى: لسانيات النص، المركز الثقافى العربى . بيروت/الدار البيضاء . ط ١ (١٩٩١م) ص١٤٥

(٨٠) المعرى (أبو العلاء): شرح ديوان أبى الطيب المتنبى المعروف بـ " معجز أحمد " . تحقيق ودراسة دكتور عبد المجيد دياب . دار المعارف . ط ٢ (١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م) ٦١/١ - ٦٢ وقوله : وألا من الفعل وأل يئل إذا نجا .

(٨١) العمدة ١ / ٢٣٥

(٨٢) شرح ديوان أبى الطيب ١/ ٦٢

(٨٣) الوساطة ص ١٥٤ - ١٥٥ والبيت بشرح ديوان أبى الطيب ٢ / ٢٩٥

(٨٤) كتاب الصناعتين ص ٤٤٣

(٨٥) العمدة ١ / ٢٣٩

(٨٦) العمدة ١ /٢٣٩

(٨٧) المرجع السابق ١ /٢٣٩

(٨٨) ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم . دار المعارف ط ٥ (١٩٩٠) ص ٢٦ . وفيه : كأن سباعا .

(٨٩) القرطاجنى (أبو الحسن حازم): منهاج البلغاء وسراج الأدباء . تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة. دار الكتب الشرقية - تونس (١٩٦٦) ص ١٢ - ١٣ .

(٩٠) المرجع السابق ص ١٤

(٩١) منهاج البلغاء ص ١٥.

(٩٢) المرجع السابق ص ١٥.

(٩٣) المرجع نفسه ص ٤٣

(٩٤) انظر فى تفصيل أنواع الكفاءة الثلاثة:
محمد العبد (د.): الكفاية اللغوية والكفاية الاتصالية، دار الفكر العربى – القاهرة (١٤١٩هـ – ١٩٩٩م) ص ٦ وما بعدها.

(٩٥) انظر مثلا: كتاب الصناعتين ص ١٣٣ وما بعدها وص ١٥٤ وما بعدها، والعمدة ١٩٦/١-١٩٩.

(٩٦) منهاج البلغاء ص ٣٠٩.

(٩٧) المرجع السابق ص ٣١٠.

(٩٨) العمدة ١٩٩/١

(٩٩) المنهاج ص ٢٠٦

(١٠٠) شرح ديوان أبى الطيب المتنبى ٤٨١/٢ وفيه "ترى" فى البيت الثانى مقابل "رأت".

(١٠١) المنهاج ص ٣١٠ – ٣١١

(١٠٢) المرجع السابق ص ٣١٦

(١٠٣) المرجع نفسه ص ٣١٦

(١٠٤) المنهاج ص ٣١٩

(١٠٥) المرجع نفسه ص ٣١٩

(١٠٦) المنهاج ص ٣٠٤ – ٣٠٥

(١٠٧) المرجع نفسه ص ٣٠٥

(١٠٨) المنهاج ص ٣٢١

(١٠٩) المرحع السابق ص ٣٢١

(١١٠) المرجع نفسه ص ٣٢١
(١١١) المنهاج ص ٢٨٥ ، وانظر: شرح ديوان أبى الطيب المتنبى ٧٩/٣ وفيه: فلا هجمت بها إلا على ظفر.
(١١٢) العمدة ٢٤١/١ .
(١١٣) المنهاج ص ٢٨٥
(١١٤) المنهاج ص ٢٨٥
(١١٥) المرجع السابق ص ٢٨٧ وما بعدها .
(١١٦) المنهاج ص ٢٨٨
(١١٧) المنهاج ص ٢٨٨
(١١٨) المرجع السابق ص ٢٨٩
(١١٩) المرجع نفسه ص ٢٨٨
(١٢٠) المرجع نفسه ص ٢٨٨
(١٢١) ويرى حازم أنه إذا تأتى أن يكون ذلك المعنى هو عمدة معانى الفصل والذى له نصاب الشرف كان أبهى لورود الفصل على النفس . لكنه يلحظ أن كثيرا من الشعراء يؤخرون المعنى الأشرف ليكون خاتمة الفصل. فإذا كان من الشعراء من يردف الأقوال الشعرية بالأقوال الخطابية، فالأحسن له- فى رأى حازم- أن يفتتح الفصل بأشرف معانى المحاكاة ويختتمه بأشرف معانى الإقناع، وهو مذهب أبى الطيب فى كثير من شعره (المنهاج ص ٢٨٩) .
(١٢٢) المنهاج ص ٢٨٩- ٢٩٠
(١٢٣) المرجع السابق ص ٢٩٠
(١٢٤) المنهاج ص ٢٩٠
(١٢٥) المنهاج ص ٢٩٠
(١٢٦) المرجع السابق ٢٩١
(١٢٧) المرجع نفسه ٢٩١
(١٢٨) المرجع نفسه ٢٩١
(١٢٩) المنهاج ص ٢٩١
(١٣٠) المرجع السابق ص ٢٩٥
(١٣١) المرجع نفسه ص ٢٩٥
(١٣٢) المنهاج ص ٢٩٥
(١٣٣) المرجع السابق ص ٢٩٣
(١٣٤) المرجع نفسه ص ٢٩٣
(١٣٥) المرجع نفسه ص ٢٩٣
(١٣٦) المنهاج ص ٢٩٦
(١٣٧) المرجع نفسه ص ٣٠٢
(١٣٨) المرجع نفسه ص ٢٩٦
(١٣٩) المرجع نفسه ص ٢٩٧
(١٤٠) المنهاج ص ٢٩٧
(١٤١) المرجع نفسه ص ٢٩٧- ٢٩٨
(١٤٢) المرجع نفسه ص ٣٠٠
(١٤٣) انظر: السيوطى (جلال الدين): تناسق الدرر فى تناسب السور . دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا. دار الكتب العلمية . بيروت . ط ١ (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م) ص ٥٤ .
(١٤٤) تناسق الدرر ص ٦٠، وقارن ١٤٦ .
(١٤٥) المرجع السابق ص٦٥
(١٤٦) المرجع نفسه ص٧٤
(١٤٧) المرجع نفسه ص١٣٢
(١٤٨) المرجع نفسه ص ١٣٢
(١٤٩) تناسق الدرر ص ٦٥ ، وراجع تفصيل ذلك فى المرجع نفسه ص ٦٥ ٧٠.
(١٥٠) تناسق الدرر ص ٧٠، وانظر المواضع الأخرى ص ٧١- ٧٣.
(١٥١) المرجع نفسه ص ٧٤ .
(١٥٢) تناسق الدرر ص ٨٢
(١٥٣) المرجع السابق ص٨٣
(١٥٤) الرجع نفسه ص ٧٦-٧٧

(١٥٥) المرجع نفسه ص ٧٦
(١٥٦) المرجع نفسه ص ٩٥
(١٥٧) المرجع نفسه ص ٩٩
(١٥٨) المرجع نفسه ص ١٤٤ - ١٤٥
(١٥٩) تناسق الدرر ص ١٤٣ - ١٤٤
(١٦٠) المرجع السابق ١٣٧ - ١٣٨
(١٦١) تناسق الدرر ص ١٣٦
(١٦٢) المرجع السابق ص ١٤١
(١٦٣) المرجع نفسه ص١٢٢
(١٦٤) المرجع نفسه ص ١٢٨
(١٦٥) المرجع نفسه ص١٠٧
(١٦٦) تناسق الدرر ص ١٣٨
(١٦٧) المرجع السابق ص ١٤٢
(١٦٨) لسانيات النص ص ١٩٨ - ٢٠٤
(١٦٩) تناسق الدرر ص ٦٥ - ٧٠ .
(١٧٠) ومثال ذلك أن الأول عنده في سورة المائدة يمتد حتى الآية ١٧ ؛ وهي قوله تعالى: " لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ": السيوطي (جلال الدين): مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع . تحقيق د. محمد يوسف الشربجي. مجلة (الأحمدية) - دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث - دبي- العدد الرابع (جمادى الأولى ١٤٢٠ هـ / أغسطس ١٩٩٩م) ص ص ٧٣ ١١٢ ص ٩٢.
(١٧١) مراصد المطالع ص ٩٣.
(١٧٢) تناسق الدرر ص ٨٧ .
(١٧٣) المرجع السابق ص ٩٦ .
(١٧٤) المرجع السابق ص ١٢٧ .
(١٧٥) المرجع نفسه ص ١٢٩.
(١٧٦) المرجع نفسه ص ١٢٩.
(١٧٧) تناسق الدرر ص ١٢٧.
(١٧٨) راجع:
Text and Context , ibid , p . 94
(١٧٩) تناسق الدرر ص ٦١ - ٦٢
(١٨٠) كتاب الصناعتين ص ٤٤٩
(١٨١) المثل السائر ٣١٧/١-٣١٨.
(١٨٢) الدالية في :ديوان البحتري . تحقيق حسن كامل الصيرفي . دار المعارف (١٩٦٣) ٢ / ٧٤٠ ٧٤٥

المراجـع:
١ـ المراجع العربية :
ـ الآمدي (الحسين بن بشر بن يحيى) :
ـ الـموازنة بين أبي تمام والبحتري ، تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العلمية- بيروت، د . ت .
ـ ابن الأثير (ضياء الدين) :
ـ المثل السائر، قدمه وعلق عليه د .أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهـرة،د. ت .
ـ الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) :
ـ البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٥، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
ـ الجرجاني (القاضي علي بن عبد العزيز) :
ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط ٣ ، د . ت.
ـ حسان (تمام) :
ـ المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة . مجلة : فصول - سبتمبر (١٩٨٧) .
ـ ابن حمزة (يحيى بن حمزة العلوي) :
ـ كتاب الطراز ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د .ت .

- خطابى (محمد) :
- لسانيات النص، المركز الثقافى العربى، بيروت / الدار البيضاء، ١٩٩١.
- ابن خلدون (عبد الرحمن) :
- المقدمة ، الدار التونسية للنشر ، تونس، ١٩٨٤.
- دو بوجراند (روبرت) :
- النص والخطاب والإجراء، ترجمة د. تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة،١٩٩٨.
- ابن رشيق (أبو على الحسن) :
- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الجبل، بـيروت، ط ٤ ، ١٩٧٢م.
- ابن طباطبا (أبو الحسن محمد بن أحمد) :
- عيار الشعر ، تحقيق : د. عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة ، د. ت .
- العبد (محمد) :
- الكفاية اللغوية والكفاية الاتصالية، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- عبد المجيد (جميل) :
- البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨.
- العسكرى (أبو هلال) :
- كتاب الصناعتين ، تحقيق: على محمد البجاوى ومحمد أبى الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧١هـ ١٩٥٢م.
- ابن قتيبة (أبو محمد الدينورى) :
- الشعر والشعراء ، بيروت ، ١٩٦٤م.
- القرطاجنى (حازم) :
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية ، تونس، ١٩٦٦م.
- امرؤ القيس :
- ديوان امرئ القيس ، تحقيق: محمد أبى الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، ط ٥ ، ١٩٩٠م.
- الكلاعى (أبو القاسم محمد بن عبد الغفور) :
- إحكام صنعة الكلام، حققه وقدم له: د. م محمد رضوان الداية، عالم الكتب ، ط٢، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.
- ابن المعتز (عبد الله) :
- كتاب البديع، نشره وعلق عليه: إغناطيوس كراتشقوفسكى، دار المسيرة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- المعرى (أبو العلاء) :
- شرح ديوان أبى الطيب المتنبى المعروف بـ " معجز أحمد "، تحقيق ودراسة: د. عبد المجيد دياب، دار المعارف، ط٢، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م .
- ابن منقذ (أسامة) :
- البديع فى نقد الشعر ، تحقيق: د. أحمد بدوى ود. حامد عبد المجيد، مراجعة: إبراهيم مصطفى، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، د.ت.
- ابن وهب (أبو الحسن إسحق بن إبراهيم) :
- البرهان فى وجوه البيان، تحقيق: د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثى، ساعدت جامعة بغداد على نشره، ١٩٦٧م.

٢ـ المراجع الأجنبية:

- Brinker, Klaus: Textbegriff in der heutigen Linguistik. In: · **Studien zurTexttheorie und zur deutschen Grammatik**. Duesseldorf (1973).
- Brown, Gillian – Yule, George: **Discourse Analysis**. Cambridge Uni. Press (1984).
- De Beaugrande, R. – Dressler, W.: **Introduction to Text** – Linguistics Longman – London – New York. (1983).
- Grabe, William: **Written Discourse Analysis**: Kaplan R. B. (ed.) Annual Review of Applied Linguistics 5: 101 – 123.
- Halliday, M. A. K.: **Language as Social Semiotic**. Edward Arnold London (1993).
- Halliday, M. A. K. – Hasan, R.: **Cohesion in English**. Longman. London – New York (1983).

- Hartmann, R. R. K.: **Contrastive Textology**: Comparative Discourse. Julius Groos Verlag. Heidelberg (1980).
- Heinemann, W. – Viehweger, D.: **Textlinguistik.** Eine Einfuehrung · Max Niemeyer Verlag (1991).
- Lewandowski, T.: **Linguistisches Woerterbuch.** 2. Quelle u.Meyer. 6 Auflage – Heidelberg, Wiesbaden (1994).
- Sowinski, B.: **Textlinguistik**. Verlag W. Kohlhammer – Stuttgart – Berlin – Koeln – Mainz (1983).
- Van Dijk, T.: **Text and Context**.Longman – London – New York, (1980).
- Widdowson, H. G.: **Teaching Language as Communication**. Oxford Uni. Press (1984).